

القصـــة القصيـــرة للسيرة المستنيرة



توطئة..

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الأمين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد أكرمني الله تعالى بتأليف كتاب: (السيرة المستنيرة) في ٧٠٠ صفحة، ليكون مرجعاً علمياً لطلاب معهد علوم الشريعة في جمعية المحافظة على القرآن في الأردن، ولعله يكون إضافة نوعية لمكتبة السيرة النبوية بشكل عام، وكان التأليف بطريقة المحدثين المحققين لما صح من روايات السيرة، مع استنباط الفوائد في المجالات الحياتية المختلفة (تربوية واجتماعية واقتصادية وإدارية وسياسية وعسكرية وأمنية)، وتم طباعته الطبعة الثانية ولله الحمد.

ولقد وجدتُ إلحاحاً من بعض الكرام بعمل تلخيص لأبرز ما صحّ من أحداث السيرة المستنيرة بطريقةٍ قصصية مسترسلة جاذبة .. ففكرت ملياً .. ثم استعنت بالله تعالى في كتابة قصة قصيرة، تتداخل فيها الروايات الصحيحة، بالدروس المفيدة بشكل سريع ومختصر فإن كان في هذه الفكرة والعمل من خير؛ فمن الله الفتاح الملهِم .. وإلا فأسأل الله عفوه وغفرانه، على كل خلل أو زلل.

مقدمات علمية

مفهوم السيرة

هي: خط سير حياة النبي صلى الله عليه وسلم من مولده إلى وفاته، أو من مقدمات ما قبل الولادة الشريفة، إلى ارتدادات ما بعد وفاته المؤلمة لأصحابه وعموم أمته.

أهميتها

وللسيرة مكانتها في حياة المسلمين، فهي جزء من المصدر الثاني من مصادر التشريع (السُّنة)، وهي تحكي الجانب التطبيقي لديننا العظيم، ومنها يقتبس المسلم ميادين الاقتداء بالنبي الأعظم، وبدراستها نحسن الرد والدفاع عن شخص النبي صلى الله عليه وسلم ودينه ومنهجه وطريقته وصحابته الكرام.

ضوابط التعامل معها

وحتى نحقق الانتفاع من دراسة السيرة، فإنه لا بد من توفر نية الاقتداء بصاحبها والانتباه لما فيها من روايات ضعيفة أو لا أصل لها، ومحاولة ربطها بالواقع الذي نعيش ومحاولة استيعاب اجتماع الجانب البشري وجانب الوحي في شخصية النبي العظيم.

مصادرها وتدوينها

أما مصادر تدوين السيرة وتاريخها، فقد كانت آيات القرآن أول توثيق راسخ لبعض أحداثها، وسجل رواة الحديث جوانب أخرى من السيرة ضمن مؤلفاتهم، حتى تم تدوين السيرة على يد محمد بن إسحاق ثم تلميذه عبد الملك بن هشام في كتب منفصلة، وجاء المؤرخون والأدباء فحملوا لنا السيرة بطريقتهم، ثم قام الفقهاء والمفكرون باستنباط فقهها وفكرها ودروسها، وقام المحققون بدور أصيل في تمييز صحيحها من ضعيفها.

بداية الحكاية ..

قبل الميلاد

حدثه جده عبد المطلب عن لحظة قدوم المغرور أبرهة الأشرم بفيله وجيشه العظيم لهدم الكعبة، إشباعاً لغروره وحتى يصرف الأنظار عن مكة الى بلده التي يحكمها .. وكيف عجز (جده) عن القيام بواجبه ودوره في حمايتها .. وقد أحال تلك المهمة لله (الواحد) سبحانه .. (للبيت رب يحميه).

ووصف له (جده) مشهد طيور نزلت من السماء تهلك ذلك المغرور وجيشه .. ولَم يكن يعلم أن من أرسل تلك الطيور لتحمي الكعبة سيحكي له الحكاية لاحقاً في سورة الفيل.

شرف النسب

كان جده يعيش في مكة .. وله عشرة من الأولاد .. كان سيد مكة وزعيمها .. وكان قد فرح بعقد قران ولده عبد الله .. بآمنة بنت وهب .. ليجمع الله تعالى للحبيب صلى الله عليه وسلم شرف النسب كله .. من عبد المطلب الى هاشم الى عدنان الى اسماعيل ولد ابراهيم عليهما السلام .. وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

والده الذي كان له مكانة كبيرة في نفس جده، وقد افتداه بمائة ناقة لنذرٍ نذره سابقاً .. وقد شاءت الأقدار أن يموت والده وهو لا يزال في بطن أمه ..

ميلاد النور

في ذلك العام (عام الفيل) شاءت إرادة الله أن يخرج الحبيب صلى الله عليه وسلم من بطن أمه، التي حدثته أنها رأت نوراً انبعث منها في الآفاق حينذاك .. لقد حظي شهر ربيع الأول بتلك الميزة عن باقي الشهور .. وكانت تلك الحادثة تهديداً مباشراً لكل من تسول له نفسه غزو الكعبة، فالكعبة على موعد قريب مع النبي الحبيب.

اختلاف تميز

لقد كان اسمه مختلفاً عما تعارفت عليه قريش من الأسماء؛ محمد .. وما أدراكم ما محمد؛ فقد جعله الله نموذجاً بشرياً كامل الحمد لربه، محمود الصفات في الأرض والسموات .. صلى الله عليه وسلم.

وكأني ببعض الاختلاف في حياته بشكل مبكّر كان لحكمة أرادها الله تعالى لاحقاً .. فقد لقي حفاوة وترحيباً كبيراً ظهرت من جده وأعمامه بولادته .. كيف لا وهو اليتيم ابن ابن عبد المطلب .. وابن أخيهم الذي تجرعوا مرارة وفاته في شبابه.

كفالة وحضانة

لقد تعهد جده بكفالته وكانت ثويبة خادمة عمه أبو لهب حاضنته ومرضعته الأولى .. حتى جاءت أمه في الرضاعة (حليمة) السعدية .. تلك المرأة التي سعد بها وسعدتْ به .. وكان يرى السعادة الغامرة في وجهها؛ وهي ترى بركة الله تعالى في حياتها.

أربع سنوات قضاها الحبيب صلى الله عليه وسلم في مضارب البادية يتعلم فصاحتها، وينعم بجمال فضائها تحت سمع وعين أمه حليمة .. ووالده (زوجها) أبو كبشة ..

شق الصدر

حتى جاء يومٌ كان صلى الله عليه وسلم يلعب فيه مع إخوانه في الرضاعة، إذ برجلين يطرحانه أرضاً ويشقَّا صدره ويخرجا منه شيئاً ..

أدرك لاحقاً أنهما ملكان مبعوثان من الله لتهيئته لشيء عرفه لاحقاً ..

هذا الموقف أفزع إخوانه في الرضاعة .. وسبقاه إلى أمه حليمة وأخبراها بما حصل.

ارتبكت أمه حليمة وقررت أن ترجعه إلى بيت جده وحضن أمه ووالدته آمنة .. صلى الله عليه وسلم.

يُتم الأم بعد الأب

عاش الحبيب صلى الله عليه وسلم في كنف جده سنتين أخريين، حتى استأذنتْ أمه جده بأن تأخذه لزيارة إخوانها في يثرِب ..

يثرِب تلك التي سيكون له معها شأن كبير في قابل السنين.

وفِي طريق عودته من يثرِب وعند وصولهما إلى منطقة الأبواء شاءت إرادة الله تعالى أن تقبض روح أمه الحبيبة .. ليجمع الله تعالى عليه يُتم الأب والأم في موقف ظن للوهلة الأولى أنه محنة وحرجٌ، إذ بترتيب الله تعالى يحيله عليه إلى منحة وفرج ..

فلقد كانت العناية الربانية تأتيه بواسطة أمه .. واليوم تأتيه مباشرة وبلا واسطة .. صلى الله عليه وسلم.

يتم الجد وكفالة العم

ترك الحبيب صلى الله عليه وسلم أمه في قبرها وقفل راجعاً إلى بيت جده، الذي زادت رقته وعنايته به لسنتين أخريين .. حتى كان موعده مع ملك الموت .. وقد بلغ حينذاك ثمانية أعوام من عمره .. ليذوق حُرقة وفاة كبير العائلة وزعيم مكة وجده لأبيه .. عبد المطلب. وفِي تلك اللحظة كان موعده مع قدر جديد رتبه الله تعالى له .. مع كفيل آخر سيكون له معه حكايات وحكايات .. إنه عمه أبو طالب .. كثير العيال، قليل المال .. صلى الله عليه وسلم.

شعور بالمسؤولية

وقد تحركت قيمة الشعور بالمسؤولية في نفس الحبيب صلى الله عليه وسلم فطلب من عمه أن يرعى الغنم بأجرة يصرف بها على نفسي .. فامتهن رعاية الغنم .. وكم كانت شاقة ومتعبة تلك المهنة على ابن الثماني سنين .. لكن الله تعالى أعانه .. فوجد في رعايتها الأنس .. وتعلم شيئاً من فنون الإدارة والسياسة بشكل مبكّر.. صلى الله عليه وسلم.

في السوق

واستمر الحال على ما هو عليه حتى بلغ الحبيب صلى الله عليه وسلم من العمر اثني عشر عاماً، وقد وجد من عمه هرماً وتعباً وكثرة عيال .. فاستأذنه أن يشاركه في أعمال التجارة لعل فيما يجنيه من ربح مزيد تخفيف على عمه،ونوع مشاركة له في إعالة أولاده ..

وهكذا دخل السوق .. وكم في السوق من إرهاق وتعب جسدي ونفسي .. وقد وجد نفسه في بحر من الغش والكذب والاحتيال والاحتكار والربا .. غير أنه وجد معية الله تعالى له في وقت مبكّر جعلت منه غواصاً ماهراً يدخل أعماق البحار، ويحصل على ما فيها من لؤلؤ ومحار وربح طيب وفير.. دون أن يصاب بلوثاته وجراحاته ودون أن يغرق بمائه وعبابه .. حتى أجرى الله تعالى على ألسنة الناس وصفه بالصادق الأمين .. صلى الله عليه وسلم.

لقد وجد مشقة بالغة من أعباء الصدق والأمانة في بيئة كلها غش وخيانة .. لكنّ ما كان يراه من بركة كانت تغريه بمزيد من الشفافية والابتعاد عن الغش بصوره المتعددة .. صلى الله عليه وسلم.

رحلة ولقاء عابر

ويذكر أن الحبيب صلى الله عليه وسلم ارتحل مع عمه في طلب السوق والتجارة إلى الشام .. وكانت زيارات سريعة عابرة .. يذكر أنه التقى على الطريق وفِي عجالة وكان شاباً يافعاً براهب نصراني اسمه بحيرى .. علم لاحقاً أنه حذّر عمه من اليهود خوفاً عليه ..

ولكن لقاءه بهذا الرجل كان سريعاً جداً .. لا كما يزعم الزاعمون أنه قعد عنده زمناً أخذ عنه الرسالة والدين، فهذا محض افتراء سيحاسبون عليه.

نقلة نوعية

وفِي السوق شاءت إرادة الله تعالى أن تتعرف به سيدة شريفة اسمها خديجة .. وكانت صاحبة مال وتجارة، وقد طلبت إليه من خلال غلامها (ميسرة) أن يعمل لها في مالها بمساعدته، وكان يبلغ حينها عشرين عاماً تقريباً.

فكان البيع والشراء والأخذ والعطاء ..
وحلّت البركة وشهدت خديجة أمانته وصدقه .. وكانت تبلغ من العمر أربعين عاماً .. وكانت قد تزوجت سابقاً برجل توفي عنها ورجل طلقها .. فهي امرأة ذات خبرة اقتصادية واجتماعية ومكانة رفيعة في قومها ..

زواج ميمون

وذات يوم جاءته جارية من قِبل خديجة تعرض أن يكون زوجاً لخديجة .. فعرض الأمر على عمه الذي طلبها من عمها لتكون زوجة وشريكة حياة كريمة له.
خديجة بنت خويلد رضي الله عنها .. تلك الكريمة التي واسته بنفسها ومالها، ورزقه منها الله تعالى الأولاد الذكور، وإن ماتوا في صغرهم، والبنات وقد عاشوا حتى شهدوا الرسالة، وماتوا على التوحيد والإيمان.
لقد هيأ الله تعالى للحبيب صلى الله عليه وسلم زوجة كريمة أعانته على التفرغ للتدبر ومنحته من الصفاء الذهني بعيداً عن الشتات، ليبحث عن حلول لأزمة بل كارثة كانت مكة والعالم كله يتيه فيها .. ألا وهي أزمة الجفاف الروحي والوثنية السائدة وغياب التوحيد العريق .. صلى الله عليه وسلم.

إدارة الأزمات

لقد كتب الله تعالى للحبيب صلى الله عليه وسلم القبول في قومه قبل أن يبعث كرسول فيهم .. فكان ذات يوم عند بوابة من بوابات الحرم أوشك على دخولها إذ سمع أهل مكة يقولون: أتاكم الأمين ... إذ بهم يطلبونه لحلّ نزاع دام بينهم قرابة أربعة أيام حول آلية وضع الحجر الأسود في مكانه، بعد تمام بناء الكعبة، على إثر انجراف وهدم كثير تعرضتْ له .. وقد شاركهم قبل ذلك في البناء.

فألهمه الله تعالى حسن إدارة تلك الأزمة بأن طلب منهم أن يضعوا الحجر الأسود على ثوب كبير، وأن تأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب ويرفعوه، ليقوم هو بحركة سريعة خاطفة بأخذ الحجر بيده الشريفة ووضعه في مكانه .. تلك المشاركة في إدارة أزمة دينية أو سياسية أو عشائرية ساهمت في زيادة رصيده في نفوس القرشيين .. وكأنها رسالة من الله تعالى لهم بأنه سيكون له دور طليعي لاحقٌ في حل أزمتهم بل وأزمة البشرية كلها .. صلى الله عليه وسلم.

حضور و مشاركات متنوعة

هذا المشهد مع مشهد آخر كان قد شهده مع عمومته وهو ما يسمى بحلف الفضول وقبله حرب الفِجار، جعل له حضوراً في قومه .. فهو ليس غريباً عليهم، وهم يعرفونه جيداً في رعاية أغنامهم، وبيعهم وشرائهم، وحل مشكلاتهم، بل وفِي بعض اجتماعاتهم وأحلافهم ومعاهداتهم وبعض حروبهم ..

فقد شارك الحبيب صلى الله عليه وسلم ولو من بعيد بعضَ مشاركة في حرب الفجار ضد قبائل ارتكبت محظورات في الحرم، وشارك في حلف الفضول وقد تعاقدت عدة قبائل على نصرة المظلوم، فسعد لذلك وتحمس له كثيراً .. كل ذلك في مرحلة الشباب الفوار وهو لا يزال دون الثلاثين من عمره .. صلى الله عليه وسلم.

خلوة و تدبر

وهكذا تمضي به الأيام وهو يراقب ما يجري من حوله .. فالبيئة القبلية لا تفتح أفقاً واسعاً لأبنائها خارج الصندوق المقفل .. ولكن الله تعالى ألهمه لاعتزالٍ نسبيٍّ في غار حراء .. ذاك الغار الكائن في جبل شاهق الارتفاع يطل على الكعبة من بعيد ..

كان يمضي فيه الليالي ذوات العدد، ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها ويتزود ثانية ليعود ..

لقد حملت خديجة رضي الله عنها عنه عبء التجارة ورعاية الأبناء .. وهي تشعر أنه يبحث عن حلول ويفكر في أمر كبير.. لكنه لا يدري تحديداً من أين يبدأ .. لقد زاد الظلم ووأد البنات والزنا والربا، وصار عدد الأصنام حول الكعبة كثيراً .. والخمر يُسكر الناس فينسيهم ما هم فيه من بلاء ..

منطلق البعثة

حتى حصل مع الحبيب صلى الله عليه وسلم ما لا يملك وصفه من شدته وثقله ومفاجأته.
لقد نزل عليه وهو في الغار جِبْرِيل عليه السلام .. كان لقاؤه الأول به مرعباً لأنه لم يتوقع لقاء أحد في الغار مطلقاً .. لم يكن يعلم من هو جِبْرِيل عليه السلام .. أخذه وضمه إليه ضمة شديدة تأكد من خلالها أنه لم يكن يحلم بل كان مستيقظاً منتبهاً .. كرر ذلك مراراً وهو يقول له: اقرأ .. والحبيب يردّ: ما أن بقارئ .. حيث لم يكن قارئاً ولا كاتباً .. ثم قال له: اقرأ بِسْم ربك الذي خلق* خلق الإنسان من علق ...) .. أدرك لاحقاً أن جِبْرِيل عليه السلام رسولٌ من الله تعالى لأنبيائه .. يحمل لهم الرسالة ويصاحبهم في بعض مراحل تبليغها.
لقد كان موقفاً مرعباً .. فنزل عن الجبل مسرعاً .. ولا يدري كيف نزل، وقد خشي على نفسه من الهلاك أو البلاء .. صلى الله عليه وسلم.

إدارة الموقف الملتبس

وما أن وصل صلى الله عليه وسلم بيته حتى استقبلته خديجة الحبيبة رضي الله عنها فطلب منها غطاءً وقلبه يرتجف .. ثم أخبرها بما حصل معه .. فكانت نِعم المرأة الحكيمة وهي تحسن إدارة الموقف الملتبس .. حيث استدعت تاريخ علاقته بها، لتثبت أن ما حصل معه ليس شراً بل خير..
لقد ذكرته بأنه كان واصلاً للرحم، ناصراً للمظلوم، مكرماً للضيف، معيناً للضعفاء ..
وكأنها تقول له: لن يخيب من كان هذا شأنه ..

لكنها بعدُ تريد الاطمئنان أكثر والكشف عن لغزِ ما حصل معه .. فأخذته إلى ورقة بن نوفل وكان من أبناء عمومتها .. وكان رجلاً قريباً من عالم النبوات وقارئاً مطلعاً على تاريخ الرسالات .. ثم طلبت منه أن يحكي له ما جرى معه فأخبر ورقة بكل شيء .. صلى الله عليه وسلم.

تشريف وتكليف

فما كان من ورقة إلا أن بشره وخوفه في الوقت نفسه .. بشره بأنه سيكون النبي الخاتم للبشرية .. وقد سعد بادئ الأمر؛ لا رغبة في الزعامة التي لم يكن يتوقعها مطلقاً، وإنما لأنه كان يبحث عن حل لأزمة الناس، فوجد في فكرة ومبدأ النبوة (طالما أنها جاءته كهبة من الله تعالى) فرصة لذلك ..

لكنه خوفه من تبعات تلك الرسالة والنبوة .. حتى أنه قال بأن خصومة القوم له ستبلغ حدها بإخراجه من بلده التي أحب .. وقد تذكّر كلامه بعد ثلاثة عشر عاماً، يوم الهجرة من مكة إلى المدينة .. صلى الله عليه وسلم.

ذاك الرجل الأصيل النبيل الذي تمنى لو كان شاباً لينصره .. لكنه مات بعد فترة وجيزة .. وقد أعلمه الله تعالى أن لورقة بن نوفل جنة أو جنتين.

حال جديد

رجع صلى الله عليه وسلم بمعيّة خديجة الحبيبة .. بصورة غير الصورة التي ذهبا بها إلى ورقة بن نوفل .. فقد أدرك أنه نبي مرسل .. ثم فهم لاحقاً أنه خاتم الأنبياء والمرسلين .. تكليف في ثوب تشريف .. وتشريف في ثوب تكليف .. مسؤولية كبرى شاءت إرادة الله تعالى أن تلقى على عاتقه ..

وقد بلغ من العمر أربعين عاماً .. نظر حينها خلفه وأدرك كيف أن الله تعالى جعله على عينه وهيأه بالمنح والمنع؛ ليكون جاهزاً لحمل أمانته ورسالته إلى خلقه .. صلى الله عليه وسلم.

إرهاصات ما قبل النبوة

لقد تذكر صلى الله عليه وسلم أن حجراً كان يسلم عليه قبل أن يبعث .. وتذكر حادثة شق الصدر.. والبركة في بيت حليمة .. تذكر عصمة الله له من مجرد مساس الأصنام فضلاً عن الطواف حولها .. وبدأ يسمع عن ورود اسمه وحكاية بعثته في كتب أصحاب الرسالات السابقة، باعتبار أنهم كلهم بشروا أقوامهم به.

الوحي أنيس

استشعر الحبيب صلى الله عليه وسلم أن رحلته ستكون ممتدة طويلة؛ لأجل ذلك كان التحضير الإلهي لها طويلاً.

بدأت آيات الرسالة تتنزل على قلبه ..

والوحي يلهمه ويرشده ويكلفه ويوجهه ..

صحيح أنه خافه للوهلة الأولى، لكن انقطاعه عنه فترة قصيرة سُميت بمرحلة فتور الوحي زاد من شوقه له، فكان كلما لقيه طلب منه أن لا يغيب عنه طويلاً، حتى فهم أنه لا يتنزل إلا بأمر الله الكريم العظيم.

مقصد الرسالة

لقد وعى صلى الله عليه وسلم حقيقة وقيمة التكليف والرسالة تماماً .. لقد وقعت آية (وربك فكبر) موقعها من قلبه ووجدانه، فعرف أن تعظيم الله في نفسه وأهله وعشيرته والعالم كله هو واجبه ورسالته.

لقد امتنّ الله تعالى عليه وامتنّ به على الناس .. لقد أدرك أنه بشرٌ مؤيد بالوحي .. معصوم محفوظ محروس .. في الوقت الذي كان يخشى فيه على نفسه من التقصير أو التفريط في جانب الله تعالى.

لقد كان القرآن العظيم ثروته وزاده وعدته .. فبه وجد الإجابة على سؤلات سألها وسُئلها لقد منحه الله تعالى تفويضاً بشرح وبيان كتابه فضلاً عن نقله بأمانة من أمين الوحي جِبْرِيل عليه السلام إلى العالمين .. صلى الله عليه وسلم.

منطلق الرسالة

من تلك اللحظة .. بدأ العمل .. لقد كان التوحيدُ المنطلقُ من الشهادتين هو عنوان الرسالة الأول:

أشهد أن لا إله إلا الله .. فلا شرك ولا أصنام ولا وثنية .. وأشهد أن محمداً رسول الله .. فلا زعامة ولا قيادة ولا إدارة لصلاح البشرية سوى إدارة الحبيب صلى الله عليه وسلم بتفويض من الله مُلهمه وخالقه.

الخير فيمن سبق و صدق

لم تتردد خديجة الحبيبة رضي الله عنها بسلوك درب الإيمان .. وآمن معها بناتها الطيبات .. وآمن عليٌّ ابن عمه أبو طالب وكان فتىً يافعاً .. وقد كان في حجره مكفولاً عنده .. وآمن صاحبه أبو بكر .. كان إيمان الأوائل معتمداً على أمرين اثنين:

- ثقتهم بصدقه صلى الله عليه وسلم وأمانته التي لم يعهدوا غيرها في حياته ومنطقه وهذا من فضل الله تعالى عليه.
- انسجام ما جاءهم به مع فطرتهم النظيفة، وهذا من فضل الله تعالى عليهم.

ثم بدأت حلقات الإيمان تتسع .. فقد فهم كل مؤمن دوره في نقل الإيمان لغيره .. وكان يسعد ويبتهج كلما جاءه خبر بإسلام فرد جديد، على يدي صاحبه ورفيق دربه أبو بكر أو غيره من الأصحاب رضي الله عنهم.

فهذا عثمان بن عفان وأبو ذَر الغفاري وسعد بن أبي وقّاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رضي الله عنهم وغيرهم كلهم نالوا شرف السبق في الاسلام.

ومع اتساع حلقات الإيمان كانت تتسع حلقات السور والآيات التي تتنزل تعليماً وتطميناً له صلى الله عليه وسلم.

القرآن رفيق الطريق

لقد كان لكل سورة حكايتها وظروفها .. ولعل الحبيب صلى الله عليه وسلم عجب لجبريل عليه السلام وهو يطلب منه ترتيب الآيات والسور بطريقة تختلف عن طريقة نزولها .. لكنه فهم أن النزول كان يناسب زمانه .. أما الترتيب النهائي (المصحفي) فيناسب كل الأزمنة بعده .. كيف لا وهو يعلم أنه لا نبي بعده.
كان القرآن في مكة يحكي قضايا الإيمان ويركز على إجابة شبهات المشركين ويرغّب ويرهّب المهتدين .. وكم كان يواسيه ويثبت قلبه آياتٌ كشف له ربه فيها بعض حكايات إخوانه الأنبياء .. صلى الله عليه وسلم.

كتمان للإيمان

بدأت قريش تشكّ بحركة غريبة على الرغم من حرصه الشديد على الإسرار والكتمان .. حتى لا يستفز عصبية قريش .. ولأنه حريص على السلم المجتمعي الذي يعينه على تبليغ الرسالة دون إزعاج من قريش .. لدرجة أن الحبيب صلى الله عليه وسلم كان يطلب من المسلمين الجدد الكتمان حتى عن إخوانهم .. وكان يطلب ممن يسلمون من خارج مكة أن يكتموا إيمانهم ويرجعوا لأقوامهم إلى حين ظهوره لاحقاً.

الأذى المبكر

بدأت حملات الإيذاء للمهتدين الجدد .. ولكن في حدود ضيقة .. فالسادة متوكلون بتعذيب العبيد من المهتدين، والآباء متوكلون بتعذيب أبنائهم .. ولكن قريشاً كانت حريصة على سوقها وتجارتها؛ لأجل ذلك ما أرادت التصعيد .. بل قبلت أن يشتري أبو بكر رضي الله عنه عدداً من العبيد المهتدين ليطلق سراحهم ويخلصهم من إيذاء أسيادهم .. وكان هذا من أحب المواقف على قلبه .. صلى الله عليه وسلم.

ومع اتساع حلقات الإيمان كانت تتسع حلقات السور والآيات التي تتنزل تعليماً وتطميناً له صلى الله عليه وسلم.

في دار الأرقم

ولما رآى صلى الله عليه وسلم أن عدد المهتدين بدأ يكبر كان لابد من جمعهم في مكان واحد معروف لهم، وفي وقت محدد لتعليمهم، ونقل ما يأتي به الوحي من قرآن لهم فوقع اختياره بتوفيق من الله وإلهامٍ على دار الأرقم بن أبي الأرقم ليكون فيها الملتقى .. صحيح أنه كان غلاماً صغيراً، لكن صغر سنه كان مموهاً لمشركي مكة .. فضلاً عن كَوْنِ داره بالقرب من الصفا بعيداً عن وسط مكة ..

لقد أتى الله ببلال بن رباح كما أتى بعثمان بن عفان وَعَبْدَ الرحمن بن عوف وغيرهم من الكرام رضي الله عنهم، وكلهم يملك من الحماسة ليفتدي الإسلام بكل ما يملك.

نقلة نوعية من الكتمان إلى الجهر

بقيت الدعوة بالتهامس .. وهو صلى الله عليه وسلم أعلم بتعليم الله له أن رسالته عالمية .. وأن التهامس لا يناسب غاية وطموح تلك الدعوة الفتية .. فكانت مرحلةً .. لكنها لم تكن كل مرحلة .. وقد جاء الوحي بتكليفه بالصدع بالحق وإنذار العشيرة .. فخرج إلى الصفا ونادى القوم وجهر بدعوته ومن حوله عشيرته وعموم المهتدين .. صلى الله عليه وسلم.

لقد كان يعلم أن درء المفاسد أولى من جلب المصالح .. لكنه الانصياع لأمر الله أولاً، ثم لإدراكه أنه ليس كل مفسدة درؤها أولى من جلب كل مصلحة .. وأنه لابد من تضحية ومبادرة لتمكين قيمةِ عالمية الرسالة .. فكان الصدع والجهر وما تبعه من إيذاء ..

إيذاء متقدم و متنوع

لقد بدأ الإيذاء برجل لم يتوقع منه صلى الله عليه وسلم سوى نصرته وإعانته، لكنه تعمد إيذاءه وإهانته .. إنه عمه أبو لهب .. وقد نزلت فيه وفِي زوجه أم جميل سورة المسد التي تعرفون ..

ثم تصدى لمحاربة دعوته كبراء القوم كأبي جهل وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وغيرهم .. وقد تعرض شخصياً لضربهم وبصقهم وأوساخهم ومحاولات خنقهم .. ثم اتهموه بالسحر والكهانة والشعر والجنون ..

طلب المعجزات

ثم طلبوا معجزات وخوارق، فشقّ الله تعالى لهم القمر.. وكانت معجزته صلى الله عليه وسلم معجزة بيانية تناسب ذاك الزمان وكل زمان (القرآن العظيم).. وهم أهل لغة وفصاحة وبيان .. فكانوا يعترفون بجمالها وكمالها واختلافها عما عهدوه من شعر ونثر وسجع وغيرها ..

وطلبوا ازالة جبال مكة وتحويلها إلى أرض زراعية، لكن الله تعالى أخبر الحبيب صلى الله عليه وسلم بأنه إما أن يجيب طلبهم فإن لم يؤمنوا فإنه يعذبهم .. أو أن يصبر عليهم .. فكان يصبر ويحتسب ويدعو لهم .. صلى الله عليه وسلم.

ولا يذكر سوى أنه دعا عليهم مرة واحدة أو مرتين ..

مساومات

وكان من كيدهم ومكرهم أنهم ساوموه أكثر من مرة على ترك دعوته في مقابل أن يعطوه أموالاً ونساءً ومناصب .. ولكن الله تعالى كان يثبته، ويعده بالعوض، فقد وجده يتيماً وضالاً تائهاً وفقيراً .. فآواه وهداه وأغناه.

وليتهم اكتفوا بإيذائهم له دون أصحابه وأحبابه الذين وجدوا العنت والمشقة والحرمان والتعذيب ..

كانت سنوات الدعوة الأولى ثقيلة ثقيلة .. لكنها خرّجت قرصاً صلباً من رجال ونساء حصلوا على الإيمان بصعوبة فلم يفرطوا فيه بسهولة ..

لقد كانت حصيلة المؤمنين بمكة قليلة لكنهم حموا الدين وحملوه في العالمين.
لقد كان يؤلم الحبيب صلى الله عليه وسلم أن يأتي على بعض أصحابه يُعذَّبون حتى الموت،ولا يملك إلا أن يقول لهم: صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة،صلى الله عليه وسلم.

تنفيس و تخفيف

وفِي الوقت الذي كان الحبيب صلى الله عليه وسلم يجد حرجاً وعنتاً كان الله تعالى يبعث له ما يبرد قلبه ونفسه .. فكان لقاؤه المتجدد بالوحي الكريم يكفيه ويشفيه ويشبعه ويرويه .. وكان كل مهتدٍ جديد يبعث في نفسه أملاً كبيراً ..
ولقد ألهمه الله تعالى لأسلوب حكيم في استقطاب حتى الخصوم ممن كان يأمل هدايتهم وكان الناس يفقدون الأمل بذلك .. فكان الرجل يأتيه حاقداً وما يخرج من عنده إلا وهو الحبيب على قلبه .. فعبد الله بن سلام يترك يهوديته .. وصهيب الرومي يترك تيهَهُ وغربته .. وضماد الأزدي يترك خصومته .. وعمر بن الخطاب يترك عنجهيته؛ وكلهم يعتنق الإسلام وينشره ويدافع عنه ويموت في سبيله.

إسلام الكبار

لقد كان يوم إسلام عمه حمزة رضي الله عنه يوماً مختلفاً فقد أسلم حمية له .. ثم حمية للإيمان بعد أن لمسه وأدركه.
وكذلك كان يوم إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه رافعة معنوية لأصحابه .. وحتى هؤلاء لم يسلموا من الإيذاء.
لقد كان يطمح بإسلام الأقوياء .. لكنه كان يعلم أن النصرة والرزق كذلك إنما تأتي ببركة الضعفاء ..
ولقد تعرض لعتاب ربه في صاحبه الأعمى ابن أم مكتوم حين أشاح بوجهه عنه رغبة في إسلام بعض كبراء قريش وقد جاء يسأله وكان في حوار معهم .. صلى الله عليه وسلم.

اعتراض و أذى ثم هجرة للحبشة

عترضت قريش على الدعوة جملة وتفصيلاً فهم يشركون بالله، وينكرون اليوم الآخر ويعترضون على القرآن والصحابة بمثل اعتراضهم على شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم.

لقد تضاعف الأذى فكانت فكرة الهجرة كمخرج للمهتدين من جهة .. ولفتح أفق جديد من آفاق الدعوة من جهة أخرى .. وكانت خيارات مكان الهجرة متعددة .. لكن توفيق الله تعالى وإلهامه له صلى الله عليه وسلم جعله يطلب من بعض أصحابه الهجرة إلى الحبشة فهاجروا في السنة الخامسة للبعثة ..

وكان قد علم بتعليم الوحي له وبحرصه على معرفة التوازنات السياسية من حوله أن فيها ملكاً عادلاً لا يظلم عنده أحد، وهذا الترتيب أشبه لما يسميه الناس باللجوء السياسي ..

عودة و رجعة

وقد أقاموا في الحبشة سنتين .. حتى أشيع أن قريش قد أسلمت، لأنه صلى الله عليه وسلم قرأ سورة فيها سجدة فسجد من كان حول الكعبة معه سجود رهبة لا إرادي ..

وقد زعم بعض من سيخاصمهم الحبيب صلى الله عليه وسلم أمام الله تعالى بأنه داهن المشركين وقبل السجود لأصنامهم كي يسجدوا لله تعالى .. وهذا ما كان ولن يكون ..

والمهم هنا أن أصحابه بلغهم إشاعة وخبر مكذوب يقول بإسلام قريش فرجعوا من الحبشة .. وكشف كفار مكة خبرهم فتعرضوا لإيذاء مضاعف ..

لأجل ذلك سمح لهم في السنة السابعة للبعثة بهجرة أخرى للحبشة،ولكنهم كانوا في هذه المرة قرابة المائة؛ بين كبيروصغيروذكروأنثى وتاجروسياسي وسيد وخادم، ومن مختلف القبائل .. مما شكل ذلك خطراً على النسيج الاجتماعي في مكة،صلى الله عليه وسلم.

موقف قريش من هجرة الحبشة

عندئذ قرر كبراء مكة أن يبعثوا بهدايا مع رجلين من رجالهم إلى الحبشة ليأتوا بأصحابه مكبلين مقيدين بالسلاسل إلى مكة .. وكان أن تم رشوة من كان حول النجاشي من الرهبان قبل الدخول إلى مجلسه بالهدايا .. ثم لما دخلوا مجلس النجاشي طلبوا تسليم أصحاب الحبيب صلى الله عليه وسلم لهم باعتبار أن أصحابه خرجوا من دين قريش ولَم يدخلوا دين النجاشي ..

فوفق الله الصحابة وحبيب النبي صلى الله عليه وسلم وابن عمه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ليرد هذه الفرية .. ويحكي للنجاشي في حوار دافئ كيف كانوا قبل الاسلام وكيف صاروا بعده .. وكيف أن قومهم أهانوهم وضيقوا عليهم وعذبوهم، فاختاروا الهجرة الى بلده دون سواها من البلدان، لأنهم علموا أنهم عنده لن يظلموا أبداً.

توفيق الله الكبير

أعجب النجاشي بمنطق جعفر.. وطرد عمرو بن العاص ومن معه .. غير أنهما عادا وطلبا من النجاشي أن يسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن رأيهم في أخيه عيسى عليه السلام .. فكانت هذه ثقيلة عليهم كما حدثتنا المهاجرة الحبيبة أم سلمة (زوجته لاحقاً).

غير أن الله تعالى وفّق جعفر رضي الله وردّ رداً حسناً أقنع النجاشي بأن عيسى عليه السلام نبي وعَبْدٌ مثله، وله هو وأمه مريم مكانة رفيعة عند الله ..

فطرد النجاشي عمرو ومن معه من مجلسه .. وأصدر تعميمه بأن أصحاب الحبيب صلى الله عليه وسلم آمنون عنده .. وأن من سبهم سيغرم ..

إقامة ناجحة وأهداف رابحة

مكث أصحابه صلى الله عليه وسلم في دار النصارى مع قوم متعصبون لنصرانيتهم، مختلفون في لغتهم وطباعهم؛ قرابة ال ١٣ عاماً .. لم يغيروا ولم يبدلوا بتوفيق الله وحفظه لهم .. لا بل وساهموا في نشر الدين هناك .. لأن هدف هجرة الحبشة نشر الدعوة فضلاً عن حماية الدعاة ..

وكان من ثمار دعوتهم؛ إسلام النجاشي، الذي أسلم على يديه عمرو بن العاص لاحقاً وقد صلى الحبيب صلى الله عليه وسلم على النجاشي صلاة الغائب لما مات .. وكان يبعث من يسأل عن أصحابه في الحبشة ويعلمهم مستجدات الوحي بين الحي والآخر.

عودة ميمونة

ولو أنه صلى الله عليه وسلم وصله أن هويتهم وعقيدتهم قد تأثرت لطلب رجوعهم إلى المدينة المنورة فور دخوله وهجرته لها لاحقاً .. لكنه أذن لهم بالعودة في السنة السابعة للهجرة بعد أن تخلص من آخر حصن من حصون يهود في المدينة عند فتح خَيْبَر.. صلى الله عليه وسلم.

وَيَا لسعادته عندما جاءه المسلمون العائدون من الحبشة .. وقد أعطاهم من غنائم خَيْبَر .. وكان مما قال حينها: لا أدري بأيهما أسرِّ أكثر.. بفتح خَيْبَر.. أم بقدوم جعفر.

لقد ثبّت الله تعالى قلوب مهاجري الحبشة .. وأيدهم بسلطة النجاشي .. وحماهم من الذوبان والانصهار في مجتمع الأغيار.

في الشّعب

نظر صلى الله عليه وسلم حوله فوجد عدداً قد لا يزيد على خمسين من أصحابه حوله فحسب .. وقد اشتدّ أَذى المشركين حتى وصل بهم الأمر إلى عقد حلف مشؤوم يقضي بمقاطعته هو وأهله وعشيرته وأصحابه؛ مقاطعة اقتصادية اجتماعية شاملة في شِعب أبي طالب ..

أوذي فيها كل من له علاقة صحبة أو نسب مباشر معه؛ مسلماً كان أو غير مسلم، سوى عمه أبو لهبٍ .. فقد كان ممن أكدَّ الحصار وشارك فيه وخرج عن طوق عشيرته ..

لقد كان حصاراً جائراً يشبه أي حصار جائر تديره دول كبرى في كل زمان ضد أي بلد أو مجموعة تخرج عن طوقها ..

واستمر الحصار لثلاث سنين .. حتى جاء مجموعة من كفار مكة فيهم بقية من شهامة؛ منهم المطعم بن عدي وغيره فوقفوا في وجه أبي جهل .. وتمردوا على حصاره الجائر .. وذهبوا لتمزيق بنود الحصار فوجدوا أن حشرات صغيرة قد أكلت تلك الورقة التي كتبوا البنود عليها وعلقوها في الكعبة .. ولَم يبق عليها سوى التسمية (باسمك اللهم).

وهكذا طويت صفحة من العناء شكلتْ له صلى الله عليه وسلم حرجاً كبيراً مع أصحابه الذين اعتادوا المشقة والعنت .. ومع أهله وعشيرته الذين كانت خطة المحاصِرين أن يتبرأوا منه ولكن الله سلّم.

رحلة الطائف

وبعد خروج الحبيب صلى الله عليه وسلم من الحصار بدأ يفكر بشكل جاد في البحث عن أفقٍ جديد .. ووقع اختياره على الطائف لقربها من المدينة ومناسبة أجوائها ..

ولأنه يعلم بوجود تنافس قديم بين قريش وثقيف .. فظن أنه لعل في ذلك ما يدعو ثقيف إلى الاهتداء أو أن يقبلوه لاجئاً يتحرك في تبليغ الدعوة دون مضايقة من أحد ..

ذهب في تلك الرحلة الشريفة وصحب خادمه زيد بن حارثة في مشهد فيه من التكتم عن قريش، بل حتى عن المهتدين الجدد ما فيه ..

عرض و رفض

ولما وصل صلى الله عليه وسلم الطائف وعرض رسالة ربه لزعمائها بهدوء، رده الزعماء بسخرية ووجد منهم أعنف الكلمات وأسوأ الإشارات،بل حرضوا غلمانهم ومجانينهم ضده، وتكبر بعضهم عن مجرد سماعه ومحاورته،واتبعوه بالضرب والحجارة فأدموه هو وزيد .. وكان قد طلب منهم أن يكتموا خبر مجيئه إليهم عن قريش طالما أنهم لم يسلموا غير أنهم لم يسلموا ولَم يكتموا .. فخرج من عندهم وقد نجح في تبليغهم .. وما أرى إلا أنهم هم الذين فشلوا في احتضان دعوته ليحوز على هذا الشرف أهل المدينة فيما بعد ..

أما أهل الطائف فقد كان له معهم موقف يوم حنين بعد فتح مكة وقد شاركوا مع قبيلة هوازن في محاربته ..

عودة حزينة و قلب كبير

خرج صلى الله عليه وسلم من الطائف حزيناً فأرسل الله تعالى جِبْرِيل بصحبة ملك الجبال عليهما السلام .. وقد عرض عليه أن يطبق على أهل مكة الجبال المحيطة بها، لأنهم تسببوا فيما هو فيه من عنت ..

لكنه صلى الله عليه وسلم طلب منه ألا يفعل، برجاء أن يخرج الله تعالى منهم مؤمنين .. وهذا ما حصل فعلاً.

لقد رفع سهام دعائه لربه شاكياً ضعفه وقلة حيلته، وكان همه الأكبر أن لا يكون في اجتهاداته ما يخالف أمرربه .. وبعد ذلك فإنه لا يبالي .. صلى الله عليه وسلم.

عند خروجه من الطائف

لقد أكرم الله تعالى الحبيب صلى الله عليه وسلم عند رجوعه من الطائف، وقد نزل بستاناً لبعض أهل مكة بالقرب من الطائف، وحاور فيه خادمهم عداس النصراني الذي وجد عنده رغبة في متابعته، وقد تأكد له أن الحبيب هو المتمم لرسالة إخوانه الأنبياء، وأنه على معرفة بنبي الله يونس عليه السلام..

ثم استمر صلى الله عليه وسلم في طريق عودته وقد نزل تحت شجرة فلقيه عندها نفرٌ من الجن سمعوا القرآن فاهتدوا ثم رجعوا إلى قومهم منذرين .. في مشهد من مشاهد المواساة له من الله تعالى على ما أصابه من ثقيف .. وكان يحسب أن المشكلة ستنتهي بمجرد وصوله مكة .. لكنها في الحقيقة بدأت هناك .. صلى الله عليه وسلم.

عند عودته لمكة

لقد وصل خبر ذهاب الحبيب صلى الله عليه وسلم إلى الطائف لأهل مكة .. فعزموا على منعه من دخولها لأنهم اعتبروا خروجه للطائف شكلاً من أشكال التمرد عليهم .. فوقف على بوابات مكة يفكر.. فالخيارات أمامه محصورة .. ولكل خيار ما له وما عليه ..

هل يخبر أصحابه ليحضروا لمساعدته .. وهذا ما قد يؤدي إلى مزيد من المشكلات لهم ..

أم يطلب من الوحي أن يأتيه مساعداً له على الدخول رغم أنف قريش .. ولكنه قبل ساعات لم يقبل خدمة ومساعدة ملك الجبال رحمةً بقومه ..
أم يترك مكة لقريش ويذهب إلى الحبشة أو أي مكان آخر.. لكنه لم يستفرغ بعدُ كامل الجهد في مكة .. وله فيها أصحاب يخشى عليهم من فتنة قريش ..

عنق الزجاجة

فألهمه الله تعالى أن يستعين ببعض قريش على قريش لما في الأمر من ضرورة .. وللضرورة أحكامها .. فكان أن طلب من أحد زعماء قريش أن يدخل مكة بحمايته فرفض، فطلب من آخر فأبى .. ثم طلب من المطعم بن عدي؛ ذاك الشهم الأصيل فخرج مع أولاده مدججين بأسلحتهم حتى أدخلوه مكة بحمايتهم ..
لم يسلم ابن عدي هذا .. لكنه صلى الله عليه وسلم حفظ له صنيعه الطيب هذا فقال لأسرى بدر: لو كان المطعم بن عدي حياً وكلمني فيكم لأطلق سراحكم لأجبته إلى ما يطلب. لقد طويتْ رحلة الطائف لكنها كشفتْ لقريش عن نيته في البحث عن مخرج .. فزاد الأذى ..

عام الحزن

وشاءت إرادة الله تعالى أن تموت رفيقة دربه صلى الله عليه وسلم وحبيبة قلبه وأم بناته وقرة عينه وسنده وظهره؛ خديجة رضي الله عنها، تلك التي بشرها جِبْرِيل عليه السلام ببيت في الجنة لا صخب فيه ولا نصب (لا إزعاج ولا تعب)، تلك التي هي من سيدات أهل الجنة .. تلك التي أخبرنا عنها أنها من كاملات النساء.
ثم مات في العام نفسه عمه أبو طالب .. ذاك الذي وقف متحدياً قريش كل قريش في سبيل حمايته وإيوائه .. لقد كان محزناً ومؤلماً لقلبه أن يموت عمه وهو على طريقة جده عبد المطلب .. وكان يرجو لو أنه أسلم ..

لكن صاحب السوء أبو جهل لم يزل عند رأسه حتى تأكد له أنه مات مشركاً بالله تعالى لقد كاد قلبه يتفتت من الحزن في هذا العام (العاشر للبعثة) .. حزناً على وفاة الحبيبة وحزناً على التمسك بالكفر لرجل طالما أحب له الهداية .. ولكن الله يهدي من يشاء الهداية .. بل ويهدي من يشاء أن يهديه.

رحلة الإسراء و المعراج

وما أن دخل العام الحادي عشر للبعثة إذ بالحبيب صلى الله عليه وسلم مع قدرٍ رباني كريم وجد فيه عوضاً وتكريماً وأنساً وسياحة ورعاية وحفاوة؛ منحه مواساة على ما فات .. وجرعة تحضير وتحفيز لما هو آت .. لقد كان على موعد مع رحلة الإسراء والمعراج. فقد جاءه ملائكة وشقوا صدره ثم أخرجوا قلبه وغسلوه بماء زمزم ثم أعادوه .. وكان ذلك (حادثة شق الصدر الثانية) بمثابة إعداد نفسي ومادي لتلك الرحلة الكبيرة .. حيث جاءه في الليلة نفسها جِبْرِيل عليه السلام ومعه دابة البراق ..

في الأقصى الشريف

فحمله عليها وطار به من بيته في مكة إلى بيت المقدس في رمشة عين ..

وكان بيت المقدس لا يزال تحت ولاية الروم ..

وكان ذلك مؤذنٌ بفتح قريب له بعون الله تعالى ..

الأقصى الحزين .. الذي فتحه عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. وحرره صلاح الدين ..

وهو اليوم ينتظر الفاتحين من أيدي اليهود الغاصبين.

مراسم الاستقبال السماوي

ومن بيت المقدس صُعد بالحبيب صلى الله عليه وسلم إلى السموات العُلى .. وفِي كل سماء كانت حفاوة اللقاء بإخوانه وآبائه الأنبياء؛ بدءاً من والده آدم في السماء الأولى .. إلى والده إبراهيم في السماء السابعة .. مروراً بإخوانه عيسى وهارون ويحيى وإدريس ويوسف وموسى .. عليهم أجمل الصلوات والتسليم.

وكلهم يلقي تحيته ويستبشر بقدومه وبعثته .. فقد كان رب العزة قد أخبرهم باقتراب موعد بعثته .. وكلهم بشروا أقوامهم بقدومه.

وقد أحزنه صلى الله عليه وسلم لقاؤه بموسى عليه السلام الذي بكى لأجل أن قومه خذلوه، على الرغم من عظيم الجهد الذي بذله فيهم .. وقد تحدى لأجلهم فرعون اللعين

رقيٌّ لا يضاهى

ثم أخذ بالصعود والرقي حتى وصل سدرة المنتهى ..

بل وألقى نظرات على الجنة وما فيها من نعيم .. وعلى الناروما فيها من جحيم

وقد بلغ منزلاً لم يصل إليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهذا من فضل الله عليه وعلى أمته فالله تعالى يخلق ما يشاء ويختار.. ويصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ..

العودة الميمونة

ثم بدأ الحبيب صلى الله عليه وسلم طريق عودته من السموات إلى الأرض، فلما حانت الصلاة، جمع الله تعالى له الأنبياء ببيت المقدس، فكان هو أمامهم .. صلى الله عليه وسلم.

وقد أكرمه الله تعالى بثلاث هدايا مميزة في تلك الرحلة .. حيث أعطاه خواتيم سورة البقرة، وفرض على أمته الصلوات الخمس، وقد كانت خمسين صلاة لولا أن أخاه موسى عليه السلام نصحه بمراجعة ربه بقصد التخفيف مستفيداً من تجربته مع قومه حتى وصلت إلى خمس صلوات في عددها؛ خمسين في أجرها وشرفها ..

ثم وعده الله تعالى أن يغفر حتى لأهل الكبائر من الموحدين من أمته إن طلبوا الهداية وسعوا لها سعيها .. انتهت تلك الرحلة الفخيمة الشريفة اللذيذة .. ورجع بلمح البصر إلى فراشه الدافئ بقدرة القدير سبحانه .. وقد رأى من آيات ربه الكبرى ..

أما ربه تعالى فما ملكت نفسه رؤيته لأنه نورٌ أنى يراه.

تكذيب وتصديق

وأخذ صلى الله عليه وسلم يحدث قريشاً وأصحابه عن تلك الرحلة العجيبة، فكذبه من كذبه .. وقد طلبوا منه وصفاً دقيقاً لبعض طريق بيت المقدس وبعض ما فيه .. فكشف الله تعالى له الحجاب وقربه له، فصار يصف لهم ما يطلبون بدقة متناهية ..

فإذا عجزت عقول القوم عن تصديقه في رحلة الإسراء وقد نزلت فيه سورة .. فهل سيصدقونه في رحلة المعراج التي كانت من أعظم المعجزات؟! .. لقد كذبه القوم كعادتهم القبيحة .. وصدقه صاحبه أبو بكر (الصديق) كعادته الطيبة كذلك.

العرض على القبائل و طلب النصرة

لقد أعطته الرحلة جرعة همة ونشاط لمزيد من العطاء ..

فصار يعرض نفسه على القبائل والوفود التي تأتي مكة للتجارة أو عبادة الأصنام .. فأسلم بعضهم وكانوا قلة .. ورفض معظمهم فكرة الاهتداء .. وصاروا يحذرون بعضهم منه .. وكانت إحدى القبائل قد اشترطت عليه أن يكون لها الأمر من بعده إن أظهره الله .. فرفض ذلك وأخبرهم أن الأمر من بعده لله يؤتيه من يشاء ..

بل إنه صار يطلب نصرتهم وإيواءهم دون شرط اهتدائهم .. من يؤويني؟ ... من يحميني؟ .. من ينصرني؟ .. فلم يجبه إلى ما طلب سوى رجل من همدان .. وقد خرج ليستشير قومه في حمايته لكنه لم يرجع .. صلى الله عليه وسلم.

بيعة العقبة الأولى

حتى كان ترتيب الله تعالى له صلى الله عليه وسلم بتسهيل لقائه بوفد من أهل المدينة، عددهم ستة .. قام بدعوتهم ونصيحتهم، فشرح الله صدورهم للهدى، فآمنوا ثم رجعوا إلى يثرِب .. ليعودوا بعد فترة إذ بعددهم يتضاعف .. والستة يصيرون (١٢) رجلاً من الأوس والخزرج ..

وكان أن بايعهم بيعة سماها الناس بيعة النساء، وإن لم يكن فيهم امرأة واحدة، وذلك لنعومة شروط البيعة حيث التوحيد وشيء من الأخلاق الحميدة ..
ولهم على ذلك الجنة .. صلى الله عليه وسلم.

السفير الأول

ثم أرسل صلى الله عليه وسلم معهم سفيره الأول وحبيب قلبه مصعب بن عُمير رضي الله عنه داعياً وإماماً ..
فهمَ مصعب دوره، وأخذ يستفيد من عامل الزمن في نشر الإسلام، فآمن بنو عبد الأشهل وغيرهم من دور يثرب .. حتى إنه لم يبق بيت في المدينة إلا وفيه من يُظهر الاسلام تقريباً.
غاب مصعب وابن أم مكتوم أشهراً .. وقاما بمهمة نشر الدين وتعليمه في يثرِب .. حتى جاءوا ب (٧٥) من المهتدين الجدد؛ كلهم يتشوق لملاقاته وأخذ البيعة منه ..
شعور بالامتنان والشكر والثناء على الله تعالى بدأ يزيد ويتعاظم في نفسه .. فالحمد لله أولاً وآخراً ..

بيعة العقبة الثانية

جاء المهتدون اليثربيون في رحلة مع قومهم من أهل يثرِب في موسم الحج على الطريقة الجاهلية .. وانتهزوا فرصة غفلة قومهم، ثم واعدوه سراً عند العقبة للبيعة .. وكان معه صلى الله عليه وسلم عمه العباس وكان يكتم سره ..
فبدأت مراسم بيعة العقبة الثانية أو هي بيعة الحرب .. بعد أن استوثق له عمه العباس من القوم، وتأكد من جديتهم في متابعته وحمايته، بل والقدرة على استضافته لاحقاً في المدينة إن لزم الأمر ذلك ..
وكانت شروط البيعة ثقيلة تتناسب والمرحلة المقبلة، إذ أخذ عليهم عهداً وميثاقاً غليظاً على نصرته، والدفاع عنه، ونشر الدعوة، والتبليغ للرسالة، والصدقة والبذل والإنفاق؛ فضلاً عن توحيد الله تعالى، والسلوك الكريم مما كان في البيعة الأولى .. ولهم عند الله تعالى الجنة ..

حماسة و فهم و انضباط

كانت الحماسة تبدو عليهم، والرغبة الجامحة لحمل أعباء تلك البيعة الثقيلة راسخة فيهم .. لاسيما وأن أكثر من واحد منهم حاول تبيين ارتدادات وآثار تلك البيعة الخطيرة عليهم .. وأنهم سيخسرون كل شيء وسيقفون في وجه كل أحد نتيجة هذه البيعة، غير أن ذلك ما زادهم إلا حماسة ورغبة وحرصاً ..

فرضي الله عن أهل البيعة وأرضاهم ..

بل إن أحدهم من شدة حماسته طلب أن يسمح لهم صلى الله عليه وسلم بالهجوم على مشركي مكة، فمنع ذلك حرصاً منه على السلم المجتمعي، ورغبة في توفير الدماء وحقنها، ولأن رسالته رسالة رحمة، ولأنه ما أحب استغلال لحظة قوةٍ عنده وغفلةٍ في قومه ليتسبب في إيذائهم .. وإن كانوا قد تسببوا في كل مشقة وعنتٍ له ولأصحابه ..

رجع المبايعون إلى خيامهم .. وجاءت قريش في الصباح تسأل وفد يثرِب إن كان أحدهم قد لقيه صلى الله عليه وسلم ؛ فحلف مشركو الوفد لهم أنهم لم يلقوه .. وقد صدقوا، فالذين لقوه وبايعوه هم مسلمو وفد يثرِب وليس المشركون.

إرهاصات الهجرة

وتمت البيعة بسلام .. وكانت تلك مقدمةَ استقباله وأصحابه في يثرِب .. تلك المدينة التي رأى ورؤياه حقّ وتشريعٌ أنها ستكون دار هجرته ..

على الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم كان يستبعد تكليف الله تعالى له بالهجرة إليها .. لما فيها من مجتمع متشاكس، ويهود يتربصون، وباعتبار قربها من دولة الروم في الشام، والتي لا تزال تشعر بنشوة انتصارها على الفرس، ولا ترغب بظهور قوة غيرها في المنطقة فذهب ظنه عندما وصفتْ له دار هجرته في المنام بأنها اليمامة أو هجَر.. فكانت طيبة الطيّبة.

هجرة الصحابة الكرام إلى طيبة

قام صلى الله عليه وسلم بتكليف أصحابه بالهجرة إلى المدينة .. وعلى الرغم من بُعد المسافة وعدم رغبة كثير منهم بالهجرة لما فيها من شدة ترك الأهل والبيوت

والأموال، والذهاب إلى مكان أجواؤه مختلفة عما اعتادوه في مكة .. إلا أن أحداً لم يناقش في الأمر .. وكانت هجرتهم سراً من شدة خوفهم من بطش قريش، التي منعت مقامهم عندها وهجرتهم عنها .. فهاجر بلال وحمزة وعمار.. وسائر الكرام رضوان الله عليهم.

هجرة الشيخين

وهاجر عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع عشرين من أصحابه .. وقد وقفت لهم قريش لجهرهم في تحديها، مما جعلهم يهاجرون بشكل مجموعات صغيرة وبشكل سري ..

وهاجر آل أبي سلمة رضي الله عنهم وقد منعهم قومهم من الهجرة وتشتت شملهم، حتى جمعهم الله تعالى في المدينة بعد عام من هذا الشتات.

أما أبو بكر الصديق رضي الله عنه فكان ينتظر إشارة الحبيب صلى الله عليه وسلم بعد أَن تأكد من هجرة أصحابه، ولَم يبق في مكة سوى بعض من يخفي إسلامه لترتيبٍ رَآه الحبيب بإلهام من الله تعالى، وقد كان لهم دور في نشر الإسلام بهدوء في مكة من جهة، وحمل أخبار مكة له من جهة أخرى ..

هجرة المختار

حتى جاء الإذن من الله تعالى للحبيب صلى الله عليه وسلم شخصياً بالهجرة، وقد لقنه رب العزة دعاء الهجرة والتحول من دار إلى دار: (وقل رب أدخلني مُدخل صدق وأخرجني مُخرج صدق واجعل لي من لَّدُنك سلطاناً نصيراً) ..

فأتى صلى الله عليه وسلم أبا بكر وقت الظهيرة وهو ملثم .. وأخبره بأنهما سيهاجران معاً وبهدوء، لأن قريشاً تآمرت على قتله .. وقد أذن الله له بالهجرة ..

وقد ترك ابن عمه علياً رضي الله عنه لينام مكانه، ثم نثر في وجوه من كان يشهر سلاحه على بابه التراب .. وخرج من بين أيديهم بقدرة الله تعالى دون أن يروه .. فحمله أبو بكر رضي الله عنه على خَيل كان قد أعده لتلك اللحظة .. وقد دفع له ثمنه ليشاركه في الهجرة بالجهد والمال ..

إذ هما في الغار

وانطلقا على بركة الله يوم الاثنين من العام الثالث عشر للبعثة .. ثم فكر وأعانه الله تعالى على تمويه قريش التي جعلت مائة ناقة لمن يأتي به أو بصاحبه أحياءً أو ميتين ..

فنزل قليلاً باتجاه جنوب مكة على الرغم من أن المدينة في شمالها، وأقام مع صاحبه في غار ثور ثلاثة أيام، وعائلة أبي بكر تخدمهما؛ بين طعام تعده أسماء وتربطه في نطاقها وأخبار ينقلها لهما عبد الله أولاً بأول ..

وراعٍ (عامر بن فهيرة) يمسح آثاره ..

فجاءت فرقة من قريش تبحث عنهما ..

وأبو بكر ينظر إلى أقدامهم ويهمس له وهو خائف عليه: يا رسول الله؛ لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا .. وهو يطمئنه ويقول: ما ظنك باثنين؛ الله ثالثهما ..

لا تحزن إن الله معنا ..

فتنصرف تلك الفرقة دون أن تراهما ..

خروج من الغار وتكملة المشوار

ثم يكون قرار الخروج من الغار ومعهما دليل (ليس بمسلم، لكنه موثوق الجانب واسمه عبد الله بن أريقط) يكشف لهما طريقاً متعرجاً عن الطريق المعتاد إلى المدينة ..

لقد كانا يختبئان في النهار ويسيران بالليل .. وتذكر صلى الله عليه وسلم أثناء ذلك رحلة كانت أطول منها بكثير جداً لكنها لم تكن بتلك المشقة، بل كانت دون مشقة مطلقاً؛ هي رحلة الإسراء والمعراج ..

وقد أرادها الله تعالى معجزة إلهية محضة .. في حين أراد من هجرته أن تكون جهداً بشرياً محضاً .. بعد الاستعانة التامة به سبحانه ..

تعقب و ملاحقة .. ثم فرج

لاسيما عند أشد اللحظات فيها كتلك اللحظة التي لحقهما بها سراقة بن مالك طمعاً في جائزة قريش .. ولما وصلهما وسمع حديثهما منع الله تعالى خيله من إدراكهما مرة بعد مرة حتى أدرك الرجل أنه معصوم من الناس .. فرجع ليغمي قومه عنهما.. وصار معهما بعد أن كان عليهما ..

وفي الطريق كذلك جلسا ليرتاحا في خيمة أبي معبد الذي أعجب ببركة الله تعالى يجريها على يده وهو يحلب شاته الهزيلة .. فينشرح صدره للإسلام هو وأهله فيسلمون ..

الوصول الميمون

ويستمر المسير في وهج الشمس وعند الظهيرة، وقد كان المؤمنون من أهل المدينة يتربصون وصوله وصاحبه كل يوم .. حتى كان يوم الاثنين وهو يوم وصولهما بعد عودة مسلمي المدينة إلى بيوتهم ..

إذ بيهودي من أهل المدينة يلمحه صلى الله عليه وسلم وصاحبه من بعيد؛ فيعرفه لأن اليهود يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ..

وينادى في الناس: هذا جدكم (حظكم الطيب) قد جاء ..

وهنا يبدأ القوم الكرام مراسم الاستقبال العظيم ..

صحيح أنه صلى الله عليه وسلم خرج من مكة حزيناً باكياً .. وقال على أطلالها: لولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت ..

ولكنه دخل المدينة متفائلاً .. بانياً .. حانياً .. حامياً .. وقال على أبوابها: اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد .. ثم دعا لرزقها وأهلها بالبركة.

ترحيب بالحبيب

دخل الحبيب صلى الله عليه وسلم المدينة وسط ترحيب غامر.. الكل يقول: هذا رسول الله قد جاء ..

لم يبق أحد من أهل المدينة إلا وجاء يسلم ويلقي التحية عليه .. حتى من كان وجوده بينهم ثقيلاً عليهم؛ كاليهود الذين كانوا يهددون أهل المدينة باقتراب بعثته وأنهم سيقتلونه ويقتلون أهل المدينة بمجرد هجرته إليها ..

وكذلك المنافقون الذين كانوا يخفون كفرهم ويظهرون إسلامهم، أو يخفون حقدهم علينا ويظهرون محبتهم لنا ..

تفهمٌ واستيعاب

وقد كان صلى الله عليه وسلم يتفهم سابق وجود هؤلاء المنافقين في المدينة قبله .. لاسيما من كان ذو شأن فيهم كزعيمهم ابن سلول .. والذي نُقل له أنهم كانوا يحضرون لتتويجه سيداً للمدينة ..

كما أنه كان يحمد الله تعالى على يوم بعاث الذي اقتتل فيه الأوس والخزرج قبل دخوله المدينة بخمس سنوات، وراح فيه كبراؤهم ومن كان يمكن أن يقف له في المدينة بما يشبه وقفة أبي جهل وابن معيط في مكة.

دخل المدينة فتسابق أهلها على استضافته ..

نزل داربني عوف بن عمرو ثم كان في ضيافة أبي أيوب الأنصاري .. صلى الله عليه وسلم.

أعمال المدينة

بناء المسجد

وكان صلى الله عليه وسلم يصلي في مسجد قباء، حتى جاءت فكرة بناء مسجد أوسع وبيت له ملاصق للمسجد .. ولكن أين يبنيه والكل يتمنى جواره والقرب منه .. وهو لا يحابي في المحبة أحداً .. لذلك ألهمه الله تعالى أن يدير أزمة المحبة تلك بتفويض الناقة في الأمر .. فهي تمشي وهي مأمورة .. وحيث جلستْ يتم بناء مسجدهم المبارك .. وشاءت إرادة الله تعالى أن تجلس الناقة في أرضٍ لغلامين يتيمين كان فيها قبور قديمة، قام بشرائها منهما بالثمن ..

ثم تم نبش القبور وإزالة بقايا رفات أصحابها التالف ..

وبعد ذلك بدأ البناء .. بناء مسجده .. الذي جعله الله حرماً كحرمة مكة .. وجعل الصلاة فيه بألف صلاة فيما سواه ..

وبناء بيته الذي سيكون قبره لاحقاً ..

وكانت حماسة أصحابه في البناء كبيرة، لاسيما وأنه صلى الله عليه وسلم كان يحمل ويبني معهم ..

كانوا يرتجزون وكان ينشد معهم ..

لم يكن بناءً لمجرد مسجد يصلي فيه الناس فحسب؛ بل بناء لجامع يُجمع فيه العلم والعمل، ويكون منطلقاً للدعوة والدولة في آن .. هكذا أراده الله تعالى فكان.

المؤاخاة

وكان من أهم ما ألهمه الله تعالى القيام به منذ دخوله المدينة؛ فكرة المؤاخاة بين المهاجرين وعددهم قليل (٥٠ مهاجراً تقريباً)، مع إخوانهم الأنصار الذين تنافسوا فيما بينهم على إيواء ومؤاخاة إخوانهم المهاجرين .. في مشهد أراد الحبيب صلى الله عليه وسلم من خلاله أن يمنح المهاجر أخاه الأنصاري علم وخبرة سنوات العهد المكي كلها، في المقابل يكون على عاتق الأنصاري إكرام أخوه المهاجر، لاسيما وأن المهاجرين كلهم خرجوا من مكة بلا مال ولا شيء من أسباب الحياة ..

لقد كانت سعادته صلى الله عليه وسلم غامرة بعروض قدمها الأنصار لإخوانهم المهاجرين .. وفرحته كبيرة بتعفف المهاجرين عن أخذ كل شيء منحه الأنصار لهم ..

ويوم جاءه عبد الرحمن بن عوف بعد أسابيع من الهجرة أو أشهر قليلة وقد تزوج من حُرّ ماله بعد نزوله للسوق وممارسته التجارة ظهر السرور في وجهه لذاك التفاعل والانسجام الذي بدأه المهاجرون مع مجتمع المدينة.

وثيقة المدينة

ومن أعمال المدينة كذلك؛ تلك الوثيقة التي ألهمه الله تعالى لكتابتها بقصد تنظيم شؤون المجتمع المدني بما فيه من مسلمين وغيرهم ..

فكانت في بعض بنودها تثبت حقوق وواجبات المسلمين تجاه بعضهم ..

وفي بعض بنودها تثبت حقوق وواجبات المسلمين وغيرهم ممن يسكن المدينة ..

وكان صلى الله عليه وسلم يعلم بما علمه الله تعالى في كتابه بعض صفات يهود وخبثهم ونقضهم للعهود ..

ولكنه أحب أن يمنحهم فرصاً أخيرة ..

وكان من أهم البنود؛ تلك الشراكة في النصرة والديات .. ومنع التعامل مع أعداء المدينة بأي صفة .. وإثبات مرجعيته صلى الله عليه وسلم عند النزاعات .

سوق المدينة

وفي الناحية الاقتصادية المعاشية كان سوق اليهود يسيطر على المدينة، فبدأ بتقديم تشريعات تحمي المستهلكين من سكان المدينة عموماً من جشع اليهود، وكان في بنود الوثيقة بعض ما ينص على ذلك ..

ولكنه رأى أن هؤلاء الخبثاء لا يصلح معهم التوجيه .. فأوعز صلى الله عليه وسلم ببناء سوق للمسلمين وغيرهم حول مسجده .. وفق نظام رباني خالص .. فكان.

لقد أخذ على عاتقه حماية المدينة وبناءها، وجعلها نموذجاً يحتذى به في عالم المدن والدول المحترمة .. وأعانه الله تعالى بثلة شريفة من أصحابه الكرام فحقق الله تعالى لهم مرادهم .. والحمد لله على ما كان.


« العهد المدني »



توطئة للعهد المدني

يلفت انتباهنا في العهد المدني أن معظم الأحداث فيه بين غزوات وسرايا، مما يخيل للبعض أنه لم يكن آنذاك لدى النبي صلى الله عليه وسلم أي اعتناء ببناء الدولة ونشر الدعوة، والصحيح أنه وإن حفظ الرواة من السيرة أسخن أحداثها كما هو المعروف عن كل كُتاب ورواة السيَر، إلا أن رواة الحديث الشريف رووا تفصيلاً يتعلق ببناء الدولة ونشر الدعوة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن في الدروس المستنبطة من تلك الغزوات والسرايا ما يثبت لنا أن الحياة جهاد مثلما أن الجهاد حياة، ولدى رجوع القارئ لهذه القصة إلى كتابي: (السيرة المستنيرة) قبل اختصاره في هذه القصة فإنه سيجد الفوائد والدروس مرتبةً بشكل موضوعي، وقد تم توزيعها على مجالات الحياة كلها (السياسية والإدارية والتربوية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية والعسكرية)، وهذه الاستنباطات معروفة عند عموم من كتب السيرة النبوية بشكل تحليلي .. فإلى تتمة القصة القصيرة للسيرة المستنيرة .. وعلى بركة الله نبدأ ..

سرايا طلب الحقوق

بعد عمليات البناء التي تحدثنا عنها في نهاية العهد المكي (بناء المسجد، وبناء المؤاخاة، وبناء الوثيقة، وبناء السوق) بدأ النبي صلى الله عليه وسلم منذ منتصف السنة الأولى من الهجرة يبعث سراياه بقصد اعتراض تجارة قريش القادمة من مكة إلى الشام، وذلك لتحصيل شيء من حقوق المهاجرين التي سلبتها قريش منهم عند هجرتهم .

وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم في مجموعة من أصحابه في السنة الثانية من الهجرة لملاقاة قافلة كبيرة يرأسها أبو سفيان .. وشاءت إرادة الله تعالى أن تفلت تلك القافلة .. لأمر هو خيرٌ من القافلة في علم الله الخبير.

عناد المشركين

على الرغم من نجاة القافلة إلا أن أبا جهل صمم على مواجهة النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من الصحابة في منطقة بئر بدر.. وقد حاول بعض العقلاء ممن حوله منعه عن ذلك لكنه أبى .. وجهّز على عجلٍ جيشاً من ألف مقاتل جاء بهم إلى بدر، وما عناد الطغاة إلا بداية النهاية لهم ولمن يوافقهم.

ثبات المسلمين

استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، فتردد بعضهم في البداية لأنهم لم يخرجوا لنفيرٍ، بل لطلب عير قريش، لكنهم علموا بقدوم أبي جهل وجيشه فعزموا على المواجهة واستعانوا بالله تعالى .. وكانوا (٣١٤) رجلاً معظمهم من الأنصار، الذين سمع منهم النبي صلى الله عليه وسلم كلاماً يؤكد رغبتهم في نصرته والدفاع عن دينه وشريعته، والرجال تُعرف في المواقف الحاسمة.

استغاثة الحبيب صلى الله عليه وسلم

لجأ النبي صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى وسأله النصر لعصابته الكريمة على عدو الله وعدوه، في أول وأعظم المشاهد بين الفريقين، فكانت بدر هي (الفرقان) بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، فأكرمه الله تعالى بأن أراه مصارع كبراء قريش قبل الغزوة.

عوامل بشرية

لاشك أن النصر من عند الله، لكن هنالك أسباب بشرية كانت وراء انتصار المسلمين في بدر ومن ذلك:

- إحسان تسوية صفوف الجيش.
- الدعاء بإلحاح بين يدي الله تعالى لتحصيل النصر.
- الشجاعة عند المبارزة والحسم في بداية الغزوة.
- نضح النبل بشكل كثيف ومنتظم على جيش قريش.
- شجاعة القائد صلى الله عليه وسلم وتقدمه الصفوف.
- ثبات الصحابة وشوقهم للجنة كعمير بن الحمام، الذي استطول الأمر فألقى تمرات في يده واقتحم الصفوف حتى لقي ربه شهيداً، وسعد والزبير وغيرهم رضي الله عنهم.
- السبق إلى ماء بئر بدر وحرمان المشركين منها.

باختصار: كان جيش المسلمين موحِّداً وموحَّداً في بدر الكبرى .. فانتصروا .. في حين كان جيش قريش فاجراً مفرقاً، وكان قرارهم انفعالياً لم يصدر عن حكمة ولا خطة ولا ترتيب ولا مشورة .. فانهزموا.

عوامل ربانية

كثيرة هي العوامل الربانية التي أعطاها الله للحبيب صلى الله عليه وسلم وأصحابه في تلك الغزوة .. فبعد أن أخذوا بالأسباب الموجودة .. منحهم سبحانه أسباباً مفقودة فكانت هي الحاسمة في جلب النصر ومن ذلك:

- مشاركة الملائكة في تثبيت المسلمين (بخمسة آلاف من الملائكة مسومين).
- إلقاء الله تعالى الرعب في قلوب المشركين (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب).
- تأثير حفنة تراب رماها الحبيب صلى الله عليه وسلم في وجوه المشركين فأصابتهم بقدرة الله فانهزموا.

• لحظة نعاس أصابت الجيش المسلم أعادت له نشاطه، وقطرات الغيث من السماء ثبتت أقدامهم.

أحداث ما بعد الغزوة

حسم الله تعالى الغزوة سريعاً، وقد نتج عن انتصار جيش المسلمين نتائج منها:

- شهداء المسلمين: كان عددهم (١٤) شهيداً، تم دفنهم في أرض الغزوة تكريماً لهم، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو لهم، ويكرم ويرحم أهلهم.

- قتلى المشركين: كان عددهم (٧٠) قتيلاً، تم إلقاؤهم في بئر بدر، وقد وبخ النبي صلى الله عليه وسلم زعماءهم عند دفنهم وكان منهم أبو جهل (فرعون هذه الأمة الذي قتله اثنان من فتيان الأنصار) وأمية بن خلف.

- أسرى بدر: كان عددهم (٧٠) أسيراً، منهم العباس بن عبد المطلب، وقد استشار النبي صلى الله عليه وسلم فيهم أصحابه وأخذ برأي أبي بكر رضي الله عنه في قبول الفداء منهم، وقد نزل القرآن موافقاً لرأي عمر رضي الله عنه في قتلهم، ولكن بعد أن أخذ النبي صلى الله عليه وسلم الفداء ممن يملكه، وطلب من الباقي افتداء أنفسهم بتعليم أولاد المسلمين الكتابة.

- غنائم بدر: اختلف الصحابة في توزيعها، فأنزل الله تعالى سورة الأنفال تأديباً لهم وتعليماً، وفصّل لهم في كيفية توزيعها، قال تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الأنفال :٤١)

- كرامة من شارك في بدر: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم).

- تأثير الغزوة على أهل مكة والمدينة: بقدر الحزن والمرارة والألم والخيبة التي حلت في أهل مكة نتيجة لخسارتهم وقتل كبرائهم؛ حلت الفرحة والأمل والعزة والكرامة والهيبة في أهل المدينة، وكانت الغزوة رافعة لهم، ومعلنة لأهل المدينة من اليهود والمنافقين بأن عصابة الحق لها قدرها ومكانتها التي لا يُستهان بها.

أحداث ما بين السنة الأولى والثانية من الهجرة

حصلت بعض الأحداث المهمة في تلك الفترة منها:

- نزول الإذن الإلهي بالقتال للمعتدين الظالمين.
- حادثة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، وفيها فضح الله نوايا المنافقين، وثبّت قلوب المؤمنين.
- زواج النبي صلى الله عليه وسلم بأمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها.
- نزول تشريع صيام رمضان، وبداية تشريع صدقة الفطر وصلاة العيد.

أحداث ما بين السنة الثانية والثالثة من الهجرة

- زواج النبي صلى الله عليه وسلم بحفصة بنت عمر رضي الله عنهما.
- زواج علي بفاطمة رضي الله عنهما.
- حصول بعض الغزوات السريعة: غزوة ذي أمر، غزوة بحران، سرية القردة، غزوة قرقرة الكدر، غزوة السويق.
- غزوة بني قينقاع: تعد هذه الغزوة أولى المواجهات بين المسلمين ويهود المدينة حيث نقض اليهود عهدهم المبرم مع النبي صلى الله عليه وسلم في وثيقة المدينة باعتدائهم على مسلم ومسلمة في سوقهم، فأجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم

من المدينة، في مشهد لم ينتصر لهم فيه إلا زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، لأنه حليفهم، فلم يجبه النبي صلى الله عليه وسلم، وأتم إجلاءهم منها، تأديباً لهم ولغيرهم من المخالفين لعهودهم.

- اغتيال كعب بن الأشرف؛ بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ما يقوم به زعيم من زعماء يهود اسمه كعب بن الأشرف من تحريض لقريش ولأهل المدينة على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام، ومن هجاءٍ قبيحٍ لنساء المسلمين وتعريضٍ بهن، وهذه كلها مخالفات لبنود الوثيقة فأرسل له محمد بن مسلمة رضي الله عنه لتأديبه، فقام محمد بن مسلمة بخداع كعب، واستطاع إدخال السلاح والرجال إلى حصنه، بعد أن أقنعه بأنهم يريدون منه قرضاً مقابل رهن أسلحتهم عنده .. ثم قتلوه وتركوه.

*مما نلاحظه في أحداث هذه السنوات الثلاث :

١. تمكين البُعد الاجتماعي والعلاقات بين النبي صلى الله عليه وسلم و أصحابه.

٢ . تمكين البُعد الأمني من خلال بثّ العيون التي تأتي بأخبار الخصوم.

٣. تمكين هيبة العصابة المؤمنة من خلال السرايا والغزوات و الانتصارات.

٤. تمكين التشريع الإسلامي من خلال نزول عدد من الأحكام والتشريعات المناسبة للظرف الزماني والمكاني.

غزوة أحد

في صفوف المشركين

حرص مشركو مكة على ترتيب صفوفهم وإعداد العدة لملاقاة المسلمين والثأر منهم في موقعة جديدة بعد موقعة بدر، وكان مما قاموا به:

- استخدام مال القافلة التي نجت قبيل غزوة بدر، لتجهيز جيشهم لملاقاة جيش المسلمين بعد عام كامل (شوال سنة ٣ هجرية) في أحد.
- تحريض قريش كلها على الثأر والانتقام ممن قتل أولادهم وقادتهم وكسر هيبتهم في بدر.
- تمكين قيادة الجيش وإعطاء الزعامة لأبي سفيان.
- توحيد صفوفهم على الهدف الواحد، وقد بلغ عدد جيشهم (٣) آلاف مقاتل.
- السماح بمشاركة النساء والجواري كوسيلة من وسائل الدعم النفسي لجيش قريش.

كل هذه الأسباب كانت كفيلة بانتصار جيش قريش من الجولة الأولى لغزوة أحد؛ لولا كفرهم وعنجهيتهم وكبرهم الذي أدى إلى إرباك صفوفهم وهزيمتهم في تلك الجولة، بل ووقوعهم بين قتيل وهارب، وترك نسائهم وأموالهم وراء ظهورهم.

في صفوف المسلمين

تعلم الصحابة الكرام من تلك الغزوة أن مجرد الإيمان وحده لا يكفي للتغلب على جيش الكفر، فقد وقع للصحابة الكرام بعض الإشكالات قبل الغزوة وأثناءها عطلت نصرهم، ومنعت من تمام فرحتهم بانتصار حققوه في الجولة الأولى، بل حولته إلى هزيمة وجراح بليغة، فمن تلك الإشكالات قبل الغزوة:

- عند استشارة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه بين أن يلقوا جيش قريش

داخل المدينة أو خارجها، اعترض البعض على أخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأي الشباب وكانوا الأغلبية، وكان رأيهم الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة.

- عندما جهز النبي صلى الله عليه وسلم الجيش وخرج به، انسحب المنافقون وعددهم (٣٠٠) من أصل (١٠٠٠) مقاتل، وذلك بحجج واهية.

- اختلف فريقان من الصحابة حول هؤلاء الراجعين الهاربين، هل نرجع لقتالهم أم نكمل مشوارنا لملاقاة قريش، فحسم القرآن الأمر (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يقال بأن محمداً يقتل أصحابه).

ومن الإشكالات أثناء الغزوة:

- نزول معظم الرماة عن التلة التي نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن النزول عنها لأي سبب من الأسباب .. مما جعل خالد بن الوليد ومن معه يلتفّ حولهم ويقتل من بقي على التلة من الرماة، ويحدث إرباكاً في مؤخرة جيش المسلمين أدت إلى هزيمتهم وقتل بعضهم وفرار آخرين، وجرح النبي صلى الله عليه وسلم.

- هلع وفرار بعض الصحابة الكرام عند سماعهم ما أشيع حول مقتل النبي صلى الله عليه وسلم، ولَم ينفع حينها ثبات آخرين كأمثال أنس بن النضر وغيره من الصحابة الذين (صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً)، الذين أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بدفنهم في أرض الغزوة، ولما رجع إلى المدينة أكرم أهلهم، وكان يكثر زيارة قبورهم، ويصف جبل أحد بأنه (يحبنا ونحبه) من كثرة شوقه لهم.

نتيجة الغزوة

- بحسبة جولات الغزوة نجد أن جيش المسلمين تغلب على جيش قريش في الجولة الأولى، والثالثة (وهي ما حصل من إعادة تجميع النبي صلى الله عليه وسلم لجيشه في حمراء الأسد استعداداً لمهاجمة جيش المشركين .. لكن أبا سفيان خشي أن يكون قد وصل النبي صلى الله عليه وسلم مدد من المدينة فرجع هو وجيشه هارباً ولَم يثخنوا في المسلمين).

- بحسبة حجم جولات الغزوة نجد أن أشدها وأعظمها هي التي تغلب فيها جيش المشركين (الجولة الثانية) فأراقوا دماءنا، وآذوا رسولنا، وشتتوا جمعنا.

- بحسبة مدى تحقق أهداف الغزوة بالنسبة للفريقين، نجد أن جيش الإسلام منع من توغل جيش الكفر إلى المدينة، لكن جيش الكفر أثخن فينا حيث قتل منا سبعين صحابياً؛ على رأسهم حمزة بن عبد المطلب الذي قتله وحشي الحبشي، ومصعب بن عُمير وغيرهما رضي الله عنهم أجمعين.

- لا نستطيع إطلاق حكم عام على نتيجة الغزوة، لكن يكفي ما فيها من دروس، وأن الله تعالى سماها مصيبة، قال تعالى: (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران: ١٦٥).

- جيش قريش كان كافراً موحَّداً، وجيش الإسلام كان موحِّداً .. لكنه (مخالفاً) عاصياً .. وليس موحَّداً (بل مختلفاً)، فقد قال الله تعالى مبيناً أسباب إخفاقنا في إكمال تحقيق النصر في غزوة أحد: (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم (تقتلونهم) بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ (نتيجة) وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ (اختلاف) وَعَصَيْتُم (مخالفة) مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ) (آل عمران: ١٥٢).

أحداث بين السنة الثالثة والخامسة للهجرة

اغتيال خالد بن سفيان الهذلي

علم النبي صلى الله عليه وسلم بقيام رجل من منطقة (نخلة) يجهز الجموع لغزو المدينة المنورة، فأرسل عبد الله بن أنيس رضي الله عنه وأعطاه وصفاً دقيقاً له بأنه إذا رَآه وجد قشعريرة في نفسه .. مضى عبد الله ولما وصل إلى خالد الهُذَلِي ووجد ما أعلمه به النبي صلى الله عليه وسلم من وصفه، وتأكد من جمعه الجموع لغزو المدينة؛ خدعه ثم قتله .. وكان عبد الله قد خشي فوات صلاة العصر عند المواجهة فصلى ماشياً وهو يومئ برأسه (صلاة الطالب).

رجع عبد الله بن أنيس إلى الحبيب صلى الله عليه وسلم ففرح لرؤيته، وأكرمه بعصاً بقيت معه حتى مات، ودفنت معه لتكون علامة بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة.

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يرسل الفاهمين لأداء المهمات الصعبة، ويدعو لهم، ويكرمهم عند عودتهم.

حادثة أصحاب الرجيع

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم سرية مكونة من عشرة رجال لتقصي الأخبار حول المدينة، فعلم بهم بنو لحيان وتبعوهم ثم حاصروهم وقتلوا ثمانية منهم، وفيهم قائدهم عاصم بن ثابت رضي الله عنه الذي حمى الله تعالى جسده بدبابير وسيل أخذ جثته فلم يصلوا إليه .. وفيهم خبيب بن عدي وابن الدثنة رضي الله عنهما، وقد ذهبوا بهما إلى مكة وباعوهما لمن طلب الانتقام منهما .. وقد سنّ خبيب سنة الشهادة بصلاة ركعتين قبل قتله، وكان متحدياً لهم لا يبالي على أي جنبٍ صرعوه لأجل الله تعالى والدين.

حادثة بئر معونة

في مشهد قريب من حادثة الرجيع بعث النبي صلى الله عليه وسلم سبعين من أصحابه كان يطلق عليهم القرّاء لتعليم القرآن والدين لقبيلتي عضل والقارة فاستعان هؤلاء ببني رعل وذكوان ولحيان .. الذين غدروا بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عند بئر معونة وقتلوهم كلهم .. ومنهم حرام بن ملحان وعامر بن فهيرة رضي الله عنهما، فمكث النبي صلى الله عليه وسلم شهراً كاملاً يدعو في صلاته على القتلة الخائنين، ولربما اكتفى النبي صلى الله عليه وسلم بالدعاء دون تحريك جيش للثأر لأن الفرصة لم تكن متاحة، ولأنه لم يستخدم استراتيجية الهجوم قبل ذلك إلا بعد السنة الخامسة للهجرة.

غزوة بني النضير

بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن يهود بني النضير لم يتعلموا من درس خيانة يهود قينقاع، وذلك يوم تآمروا على قتل النبي صلى الله عليه وسلم حين ذهب إليهم يطلب مساهمتهم الواجبة بحسب وثيقة المدينة في دية رجلين قتلهما أحد الصحابة بالخطأ.

فحاصر النبي صلى الله عليه وسلم ديارهم، وحرق شيئاً من نخلهم لتخويفهم، حتى أجبرهم على الجلاء والخروج من المدينة، وفيهم نزلت سورة الحشر، وهكذا هم اليهود لم يحفظوا عهودهم مع الأنبياء فهل سيحفظونها معنا؟!

أحداث أخرى

حصلت في تلك الفترة أحداث أخرى، ومن ذلك:

- غزوة بدر الثانية، فقد تواعد جيش المسلمين وجيش قريش على لقاء بعد غزوة أحد عند بئر بدر، فجاء المسلمون وغاب المشركون، وكان نصراً للمسلمين بالرعب.
- زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب بنت خزيمة رضي الله عنها.
- زواج النبي صلى الله عليه وسلم بأم سلمة رضي الله عنها.
- نزول تشريع تحريم الخمر.
- تكليف زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود.
- وفي كل ذلك نلاحظ كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على البناء والتواصل الاجتماعي، حرصه على الدعوة والتعليم ومتابعة التشريع.

غزوة الأحزاب وبني قريظة

في السنة الخامسة للهجرة بدأ عدد من زعماء يهود بني النضير بتأليب الناس على غزو مدينة الحبيب صلى الله عليه وسلم، فأقنعوا أعداء النبي الكريم ودعوته بتشكيل جيش قوامه (١٠) آلاف مقاتل لغزو المدينة وهؤلاء هم:

• مشركو قريش، وكانوا بزعامة أبي سفيان، الذي أصبح زعيماً لجيش الأحزاب كله.

• منافقو المدينة، وكانوا يبثون الأراجيف من داخل المدينة.

• يهود بني قريظة، وقد كانوا يسكنون جانباً من جنوب المدينة، وشكلوا خطراً كبيراً على أمنها، ولأجل ذلك بمجرد أن انتهت الغزوة جاء جِبْرِيل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكلفه بغزو بني قريظة، فذهب إليهم هو وأصحابه، وعاقبهم بمشورة سعد بن معاذ رضي الله عنه الذي حكم فيهم بأن تقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وذراريهم وتوزع أموالهم.

• قبيلة غطفان، وقد شاركت بستة آلاف مقاتل لأن اليهود وعدوهم بنصف ثمار خَيْبَر إن انتصروا في تلك الغزوة، لأجل ذلك عرض النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ثلث ثمار المدينة كي يرجعوا عن قتاله فوافقوا، لولا أن النبي صلى الله عليه وسلم استشار الأنصار فاعترضوا على ذلك، فردّ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الاتفاق مع غطفان وأوقفه.

الإجراءات النبوية المباركة

علم النبي صلى الله عليه وسلم بتجهيز جيش الأحزاب قبل أسبوع تقريباً من وصول ذاك الجيش المدينة، فاستشار أصحابه، ثم أخذ بمشورة سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر خندق عند نقطة ضعف المدينة في شمالها (طوله خمسة كيلومتر ونصف تقريباً) حيث كانت محاطة بجبال من جهة الشرق والغرب، وجزء من الجنوب سوى موضع إقامة يهود بني قريظة هناك.

وقد ساهم النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه في الحفر، وأخذ يحفزهم وهم ينشدون، ثم أخذ يبتهل إلى الله تعالى طالباً فرجه ونصره، وبدأ يبث معاني التفاؤل والأمل فيهم؛ فبشرهم بفتح الشام وفارس واليمن، وأرسل حُذيفة والزبير بن العوام رضي الله عنهما ليأتياه بخبر جيش الأحزاب في مهمة أمنية صعبة، ومع اشتداد الظلام والبرد والجوع بسبب الحصار المجرم على المدينة قبِلَ النبي صلى الله عليه وسلم دعوة وليمة جابر بن عبد الله رضي الله عنه، ودعا لها جيشه كله، وقد بارك الله في الوليمة فأكلوا منها ولَم تنقص شيئاً.

حسم الغزوة ونتيجتها

بعد أخذ الأسباب لابد من التوكل على رب الأرباب، فقد استنفد النبي صلى الله عليه وسلم الأسباب العسكرية بحفر الخندق وتوزيع الجيش، والأسباب الأمنية بالحصول على معلومات عن جيش الأحزاب

، والأسباب الإيمانية بالدعاء وبث التفاؤل والأمل، والأسباب الاقتصادية بما حصل من بركة في وليمة جابر، وعندها أمده الله تعالى بأسباب ربانية، فقد هدى الله تعالى نعيم بن مسعود رضي الله عنه في ذاك الوقت، وهورجل مسموع الكلمة عند قريش واليهود والمنافقين، وقام نعيم ببث بذور التشكيك ونزع الثقة بين الأحزاب المتحالفين على غزو المدينة، ثم أتى الله تعالى بريح شديدة خلعت خيام جيش الأحزاب. ومع خوفهم ألا يستمر حلفهم حتى النهاية أمر أبو سفيان الجيش بالانسحاب من حول المدينة، فرجع الجيش وتفرقت راياته، وهزم الله الأعداء بالريح والرعب، ونصر الله المؤمنين بقوته وحكمته، وعندها أعلن النبي صلى الله عليه وسلم استراتيجية جديدة في التعامل مع أعداء دعوته ودولته حين قال: (اليوم نغزوهم ولا يغزونا)، وهذا ما جعل النبي صلى الله عليه وسلم يزيد من إجراءاته الأمنية ليعلم بشكل مسبق عمن تسول له غزو المدينة فيسبق هولغزوه في عقر داره.

حادثة الإفك

في السنة الخامسة للهجرة كذلك علم النبي صلى الله عليه وسلم أن بني المصطلق يجهزون لغزو المدينة ويحرضون الناس على ذلك، فخرج لملاقاتهم وقام بمداهمتهم في عُقر دارهم تأديباً لهم ولغيرهم.

وعند عودة النبي صلى الله عليه وسلم بالجيش من الغزوة، وكان في صحبة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها نزل الجيش ليرتاح، وذهبت عائشة رضي الله عنها لقضاء حاجتها، ففقدت عقداً ثميناً لها، فأخذت تبحث عنه، وقد ارتحل الجيش ولَم يعرفوا أن عائشة رضي الله عنها ليست في هودجها على ناقتها.

لقيت عائشة عقدها ورجعت، فلم تجد الجيش، فقعدت في مكانها تبكي وتنتظر الفرج من الله، حتى جاء صحابيٌّ جليل كان في مؤخرة الجيش واسمه صفوان بن المعطل، فحملها على دابته حتى أوصلها إلى الجيش.

بداية الأزمة

استغل المنافقون هذا المشهد وبدأوا يخوضون في عرض عائشة رضي الله عنها، ويتهمونها بالزنا مع صفوان، وهي لا تدري ما يقال عنها لأنها مرضت ولزمت الفراش بعد العودة من تلك الغزوة، ولما زاد الكلام وتحدث عدد محدود كذلك من الصحابة في الأمر، عرفت عائشة رضي الله عنها، فطلبت الذهاب إلى بيت أهلها، وهي في حالة محزنة مؤلمة لما تعرضتْ له من ظلم وخوض أثيم.

موقف النبي صلى الله عليه وسلم

سلك النبي صلى الله عليه وسلم عدة مسالك في مواجهة تلك الأزمة، ومن ذلك:

- عدم مفاتحة عائشة رضي الله عنها في الأمر في أوله.
- انتظار الوحي الكريم لعله ينزل ويحسم الخوض في الأمر.
- طلبه من الصحابة أن يسكتوا زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان يثير الفتنة بطرق خفية خبيثة.
- مشاورة علي وأسامة بن زيد والخادمة رضي الله عنهم، وكلهم أثنوا على عائشة وإن كان عليٌّ قد طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يزعج نفسه كثيراً فالنساء سواها كثير.
- سماحه لها بالذهاب إلى بيت أهلها.
- مكاشفته لها وطلبه منها أن تتوب إن صدر منها ما لا يرضي الله، أو أن تنتظر براءتها من الله تعالى.

شدة الألم ونزول البراءة

اشتد الحزن بأم المؤمنين، وطلبت من أهلها أن يدافعوا عنها، لكنها لم تكن موضع اتهام عندهم ولا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدر ما كانت في موضع حيرة بالنسبة لهم، فهم يعرفون تربيتها وخلقها وسلوكها النبيل، لكن موقفاً ملتبساً كهذا يحتاج إلى تبيين، فبقيت تبكي حتى جفّ دمعها، والموقف كان شديداً عليها وهي فتاة في الرابعة عشرة من عمرها.

عندها نزل الوحي الكريم بعد شهر كامل من خوض الخائضين بها، وقد نزلت براءتها في سورة النور التي فصّل لنا فيها الله تعالى ما ينبغي أن نفعله إذا أشاع الفاسدون عن أهلنا وإخواننا ما لا يليق في حقهم، وقد حمدت عائشة رضي الله عنها ربها، وتعلمت درساً في الحيطة والحذر، وأقام النبي صلى الله عليه وسلم حدَّ قذف المحصنات على من ثبت خوضه بعرضه الشريف.

صلح الحديبية

رأى النبي صلى الله عليه وسلم في السنة السادسة للهجرة رؤيا كريمة؛ ورؤياه حقٌّ أنه يؤدي العمرة، فخرج قاصداً مكة وأخذ معه (١٤٠٠) من صحابته الكرام، وساق معه الهدي ليثبت حسن نيته، وأنه ما جاء لحرب ولا قتال.

اعتراض قريش

علمت قريش بقدوم النبي صلى الله عليه وسلم نحوها، فحرصت على منعه من دخول مكة، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على السلم المجتمعي فقد طلب من عمر رضي الله عنه أن يذهب لإخبار قريش أنه ما جاء إلا معتمراً وليس محارباً، فاعتذر عمر خوفاً من استفزاز قريش، وأوصى بإرسال عثمان رضي الله عنه لهدوئه ومكانته من قريش

فكلف النبي صلى الله عليه وسلم عثمان بالمهمة، ولما وصل عثمان وأخبرهم بمقصد النبي صلى الله عليه وسلم لم يصدقوه بل وحبسوه عندهم، فخرجت إشاعة تقول بمقتل عثمان، وعندها جمع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وبايعهم تحت الشجرة بيعة الرضوان على الثأر والانتقام لعثمان رضي الله عنه، وبعد تمام البيعة أطلقت قريش عثمان رضي الله عنه فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولَم يحصل أي اقتتال، وفِي فكرة البيعة على القتال ما يؤكد قيمة الصحابي الواحد عند النبي صلى الله عليه وسلم.

مفاوضات وحلٌّ سلمي

أرادت قريش توجيه رسالة جادة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأرسلت للنبي صلى الله عليه وسلم خمسة من المندوبين عنها؛ منها ومن حلفائها، للتأكد من نية النبي صلى الله عليه وسلم، وفِي كل مرة كان المندوب يرجع لقريش مبيناً لها سلامة نية النبي صلى الله عليه وسلم، حتى كان آخر المندوبين وهو سهيل بن عمرو الذي فوضته قريش أن يعقد صلحاً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكتب عليّ رضي الله عنه بنود الصلح بين قريش والنبي صلى الله عليه وسلم، وهي:

- أن لا عمرة هذا العام ويرجع المسلمون لأدائها في العام القادم، وقد حصل ذلك، بعد أن اعترض المسلمون على هذا الشرط لثقله على نفوسهم، وامتنعوا عن التحلل، حتى أشارت أم سلمة رضي الله عنها على النبي صلى الله عليه وسلم بالتحلل وذبح الهدي، فاقتدى به الصحب الكرام.
- أن لا يقبل النبي صلى الله عليه وسلم في مدينته مسلماً جديداً أتاه من قريش، ولا مانع من قبول قريش لأي مرتدٍّ عن الدين يأتيها، وقد حصل أن جاء أبو جندل ابن سهيل بن عمرو مسلماً وجاء أبو بصير وغيرهما بعد كتابة الصلح، فلم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم بوجودهما عنده، فقاموا بالإقامة في منازل خارج المدينة على طريق تجارة قريش

ولَم يزالوا يقطعوها حتى طلبت قريش من النبي صلى الله عليه وسلم أخذهم عنده، فبطل مفعول هذا الشرط الشديد.

- أن تضع الحرب أوزارها بين المسلمين وقريش لعشر سنين، وهذا الشرط هو الأهم لمصلحة المسلمين، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد تحييد قوة قريش المزعجة له في الجنوب، ليتفرغ للتوسع في دعوته ودولته في الشمال بلا إزعاج، فكان الصلح مكبلاً لقدرة قريش، وفتح بدل الأفق آفاقاً لحركة الدعوة.

فرقٌ بين صلح وصلح

على الرغم من اعتراض الصحابة الكرام على بنود الصلح وغطرسة سهيل بن عمرو عند كتابته، إلا أن ثقتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم جعلتهم يوقفون اعتراضهم ويلتزموا أمره ولا يخالفوه.

وقد نزلت سورة الفتح تشير إلى أن الصلح فتحٌ، ولكن العبرة ليست بالواقع والحال، بل بالمستقبل والمآل، وفِي عالم المفاوضات لابد من تقديم تنازلات، ولكن ثمة فرق بين من يتنازل عن شكليات ليأخذ الجوهر ويحقق الهدف والطموح، وبين من يبيع نفسه وأرضه وعرضه على طاولة الوهم والمساومات التي يضع الأعداء في جيبه لأجل جلوسه عليها الأوساخ والفُتات!!.

نتائج الصلح

استثمر النبي صلى الله عليه وسلم ساعات الصلح وأيامه، وسعى بكل جهده ليستفيد من تلك الهدنة مع قريش ومن ذلك:

- أداء عمرة القضاء في السنة السابعة للهجرة، وقد دخل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام مكة ومكث فيها ثلاثة أيام، وكان أهلها قد أخلوها وذهبوا إلى العوالي والجبال، فأراهم النبي صلى الله عليه وسلم منه ومن أصحابه عزةً وقوةً عند طوافهم وسعيهم (من خلال كشف الساعد والرمل في الأشواط الثلاثة الأولى).

- دخول عدد من المهتدين الجدد الإسلام، (قيل إنهم بلغوا السبعين)، وعلى رأس هؤلاء: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن أبي طلحة رضي الله عنهم.
- إرسال النبي صلى الله عليه وسلم رسائل الدعوة وطلب الهداية إلى الزعماء والملوك، وقد تباينت إجاباتهم وردودهم عليها، فمنهم من كان رده سمحاً كريماً (هرقل الذي أوشك أن يسلم لولا خوفه من ردة فعل قومه) (والمقوقس حاكم مصر الذي احترم الرسالة والرسول وأهدى له)، ومنهم من كان رده شديداً عنيفاً (كسرى الذي مزق الرسالة، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم أن يمزق الله ملكه).

غزوة خيبر

في فترة الصلح (في السنة السابعة للهجرة) استثمر النبي صلى الله عليه وسلم تحييده لقريش (جنوب المدينة)، بمعاقبة وتأديب آخر معقل لليهود (شمال المدينة)، وهم يهود خَيْبَر، لاسيما وأنه وصله خبر تحريضهم الناس وتجهيزهم لغزو المدينة، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم بجيشه، وقد فاجأهم لحظة وصوله لشدة تكتمه وارتفاع درجات الحسِّ الأمني لدى أصحابه الكرام.

نتيجة الغزوة

حاول يهود خَيْبَر التمنع في حصونهم إلا أنهم لم يستطيعوا الصمود أمام شجاعة الصحابة وإصرارهم، لاسيما عليٌّ رضي الله عنه الذي واجه كبيراً من كبراء يهود اسمه (مرحب) كان يتحدى المسلمين فقتله، وهو الذي أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم راية خَيْبَر، حتى فتحها الله تعالى للمسلمين.
وكانت الغنيمة من السلاح والأموال والتمور عظيمة جداً، وأراد النبي صلى الله عليه وسلم إجلاء يهود خَيْبَر إلا أنهم طلبوا أن يبقوا في أرضهم يزرعوها ويعتنوا بها لمصلحة المسلمين، ويأخذوا شطر حصادها، فوافق النبي صلى الله عليه وسلم على عرضهم بعد أن هددهم من عواقب الخيانة والغش والخداع.

بعض ما جرى حول الغزوة

- تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بأم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب وهو زعيم من زعماء خَيْبَر، بعد أن أسلمت.

- نزل تشريع التيمم أثناء العودة من خَيْبَر.

- رد المهاجرون بعض الهدايا والعطايا لإخوانهم الأنصار ببركة غنائم خَيْبَر.

- وضعت يهودية السم في شاة مطبوخة، ودعت النبي صلى الله عليه وسلم ليأكل من تلك الوليمة، فأكل هو وأحد أصحابه، لكن الله تعالى أخبره بوجود السمّ فأخرج المضغة من فمه ولَم يأكلها، ومات من كان معه في إثر أكلته تلك، فأقام النبي صلى الله عليه وسلم على اليهودية القصاص.

- نقض اليهود عهدهم وحاولوا رشوة عبد الله بن رواحة الذي أوكله النبي صلى الله عليه وسلم مهمة أخذ حصة المسلمين من حصاد خَيْبَر، وبقي إيذاؤهم يتصاعد حتى أجلاهم عمر رضي الله عنه منها في زمن ولايته.

- غزوة ذات الرقاع، وكان وجهتها قبيلة غطفان، لكن الغزوة لم تتم، لأن الطرفان أخافوا بعضهم، فلم يحصل قتال، وفيها شرعت صلاة الخوف.

غزوة مؤتة

قيل في سببها هو: إرادة النبي صلى الله عليه وسلم الثأر لصاحبه الحارث بن عمير الأزدي، الذي كان يحمل رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملك بصرى، فقتله شرحبيل بن عمرو الغساني على الطريق، بل قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم أراد توجيه رسالة تأديب للروم وإيقافهم عند حدهم في (الشام) شمال المدينة.

أحداث الغزوة

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم في الشهر الخامس من السنة الثامنة للهجرة جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل إلى مؤتة في جنوب الأردن، وجعل عليهم ثلاثة أمراء (زيد بن حارثة، جعفر بن أبي طالب، عبد الله بن رواحة، فإن قتلوا فإن المسلمين يختارون من بينهم أميراً عليهم) .. لكن جيش الروم كان كبيراً (٢٠٠٠٠٠ ألف مقاتل)، وقد تردد جيش المسلمين، لكنه عزم أمره وبدأ القتال.

وقد استشهد قادة الجيش الثلاثة، وحمل الراية بعدهم خالد بن الوليد رضي الله عنه؛ الذي قرر عمل خطة انسحاب ذكية يحقن بها دماء جيش المسلمين دون أن يعطي الروم فرصة ليفرحوا بانتصارهم علينا، وهذا ما حصل حين غيّر مواقع جنوده، وجعل الميسرة ميمنة والميمنة ميسرة، وجعل المقدمة مؤخرة، و المؤخرة مقدمة، فظن الروم أن جيش الإسلام جاءه مدد،وهكذا رجع الجيش إلى المدينة بهدوء.

نتيجة الغزوة

هناك من يرى أن نتيجة الغزوة هزيمة لجيش الإسلام لما فيها من انسحاب، ولأن أطفال المسلمين استقبلوا الجيش بقولهم: يا فُراريا فُرار.

والراجح الذي نميل إليه أنها كانت نصراً للمسلمين للأسباب الآتية:

• حقق جيش الإسلام هدفه من المعركة حيث أوصل رسالة قوية للروم بقوة المسلمين، وإيقافهم عند حدهم، وقد تسببت تلك الصورة القوية عن المسلمين بهزيمة الروم بعد سنتين بالرعب في غزوة تبوك.

• حصل المسلمون على بعض الغنائم كما جاء في بعض الروايات، والجيوش المهزومة لا تغنم.

• ذكر النبي صلى الله عليه وسلم عبارة: (فلما فتح الله للمسلمين) وهو يحكي لأصحابه خبر مؤتة

وكان رده على من قال بأن جيش المسلمين هم الفُرار: بل هم الكُرار إن شاء الله.

- توقف الروم وعدم قدرتهم على التقدم نحو المدينة، والإثخان في صفوف المسلمين.
- بالمقارنة بين قتلى الروم (قيل بأنهم: ٣٣٥٠ قتيل)، وشهداء المسلمين (١٢ شهيداً) نجد فارقاً كبيراً يؤكد تفوق جيش المسلمين بشجاعة رجاله وتوكلهم على الله.

غزوة فتح مكة

بقي النبي صلى الله عليه وسلم على عهده مع قريش حتى الشهر التاسع (رمضان) من العام الثامن للهجرة، لكن قريشاً ساهمت مع حلفائها من بني بكر في قتل عشرين رجلاً من بني خزاعة، وهم حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم، وجاء زعماء بنو خزاعة يستغيثون بالنبي صلى الله عليه وسلم، فبشرهم بنصرتهم على من ظلمهم، لكنه كان حريصاً على كتم الخبر، فلم يطلع أحداً على نيته، حتى أن أبا سفيان جاء من مكة إلى المدينة وأراد معرفة نية النبي صلى الله عليه وسلم، لكنه فشل في مهمته وعاد إلى مكة خائباً.

تجهيز الجيش وبداية الفتح

جهز النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل، دون أن يعلمهم وجهته، لأنه كان حريصاً على حقن الدماء لأصحابه، والسلم المجتمعي لأهل مكة ولما حاول حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه كشف سر حركة الجيش لقريش؛ كشف جِبْرِيل عليه السلام الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم، فمنع وصول الكتاب لقريش، واستدعى حاطباً الذي لم يعرف كيف يجد مسوغاً لموقفه موقفه أمام النبي صلى الله عليه وسلم وقد اتهمه عمر رضي الله عنه بالنفاق، لكن النبي صلى الله عليه وسلم عفا عنه قائلاً: لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم.

متابعة المسير

ثم سلك النبي صلى الله عليه وسلم نحو مكة سبلاً غير معروفة لمباغتة قريش، فلما وصل منطقة مرّ الظهران جلس مع جيشه هناك يستريحون، وكان أبو سفيان قد خرج ليتفقد الأحوال خارج مكة، إذ بحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم يأسره ومن معه، وقد عرض المسلمون جيشهم أمامه ليرى بهم هيبة الاسلام والمسلمين، ثم أدخل أبو سفيان على الرسول صلى الله عليه وسلم فحاوره فأسلم، وأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم الأمان، مثلما أعطى الأمان لمن دخل بيته أو بيت أبي سفيان، ثم رجع أبو سفيان إلى مكة وخوّف أهلها من مواجهة جيش الإسلام العظيم، وكأن الله تعالى أدخر إسلام أبو سفيان لهذه اللحظة التاريخية.

دخول مكة والفتح

• وعندها دخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة بجيشه من جهاتها الأربع دون إراقة دماء، سوى ما حصل من الجهة التي دخل منها خالد بن الوليد رضي الله عنه، حيث حصلت مناوشات استشهد فيها بعض الصحابة وعدد من المشركين .. وقد دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة مكبراً مهللاً، وهو يتلو سورة الفتح على بواباتها، وكان من أعماله فيها:

• تحطيم الأصنام التي في الكعبة وحولها.

• حفظ الأمن لعموم أهل مكة، إلا عدد يسير ممن أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دماءهم، وهم أئمة الكفر فيها.

• العفو عن عموم أهل مكة.

• عرض الاسلام على أهل مكة ومبايعتهم عليه، وقد استجاب له من مَسلمة الفتح قرابة ال ٢٠٠٠ إنسان.

• خطبة يوم الفتح، وتعليم أهل مكة بعض أحكام الإسلام.

• الصلاة داخل الكعبة المشرفة بعد تنظيفها.

- تعيين أمير على أهل مكة، هو الشاب عتاب بن أسيد رضي الله عنه.
- تحريم نكاح المتعة على الإطلاق، وقد أبيح لفترة وجيزة جداً قبلها.
- تطييب خواطر الأنصار، وقد حسبوا أن النبي صلى الله عليه وسلم سيبقى في بلده (مكة) بعد فتحها، حتى قال لهم: المحيا محياكُم، والممات مماتكم.

غزوة حنين

بعد خمسة عشر يوماً من فتح مكة، علم النبي صلى الله عليه وسلم أن هَوازن وثقيف وغطفان يجهزون لغزو مكة وقتال النبي صلى الله عليه وسلم، فخرج لملاقاتهم في وادي حنين، وكان معه (١٢) ألف مقاتل، وقد جاء الأعداء بجيش يزيد على (٣٠) ألف مقاتل، ومعهم أهلهم وأموالهم وشياههم وما يملكون، وقد حاول البعض منع قائد الأعداء المشركين مالك بن عوف النصري، غير أنه رفض كل نصح، وغرّه ما عنده من جيش كبير، وما وضعه من خطة لهزيمة المسلمين.

بداية الغزوة وثبات بعد فرار

أصيب كثير من المسلمين بشيء من الغرور لكثرة عددهم، ولأنهم لا يزالون يعيشون نشوة فتح مكة وكسر إرادة قريش، فدخلوا المعركة باسترخاء تام، ففاجأتهم خطة جيش الأعداء الذين نصبوا لهم كميناً وأغروهم بدخول الوادي، ثم انهالوا عليهم بضربات من طرفي الوادي، مما أدى إلى إرباك صف المسلمين وتراجعهم وفرار كثير منهم، سوى ما كان من ثبات عظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدد يسير من الصحابة الفدائيين حوله، وعندها أخذ الحبيب صلى الله عليه وسلم ينادي في الجيش نداءات تذكرهم بأحوال وعهود يعرفونها؛ فمرة ينادي المهاجرين، ومرة ينادي الأنصار، وأصحاب بيعة الرضوان، ثم يذكرهم أنه النبي لا كذب وأنه ابن عبد المطلب،حتى جمع الله تعالى له شتاتهم، فأعادوا الكرة على جيش الأعداء وتحول نصر الأعداء إلى هزيمة، لاسيما بعدما ألقى في وجوه المشركين حفنة من تراب.

ملاحقات وتوزيع الغنائم

بدأت فلول الأعداء تهرب، وجموع المسلمين تلاحقهم، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بجمع غنائم الأعداء في (الجعرانة) لحين عودته من ملاحقة فلول هَوازن وثقيف إلى حديقة أوطاس، ثم إلى الطائف، وقد حاصر الطائف مدة، غير أنها استعصت على الفتح، فتركها النبي صلى الله عليه وسلم ودعا لأهلها بالهداية، ثم رجع إلى الجعرانة لتوزيع الغنائم، وقد كانت كثيرة جداً، فأعطى منها المهاجرين ومَسلمة الفتح والمؤلفة قلوبهم، ولَم يعط الأنصار، فاعترض الأنصار، فقال لهم: أما ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وتذهبوا أنتم برسول الله؟!.

وقد كان كريماً في توزيع الغنائم مما أغرى رجالاً كصفوان بن أمية بالإسلام، بل جاءت ثقيف تعلن إسلامها بعد توزيع الغنائم فأعطاهم نساءهم وذراريهم وأبقى الأموال لأصحابه الغزاة، وذلك بعد مشورتهم في ذلك، وقد بلغ عدد شهداء الصحابة أربعة شهداء فقط، وعدد قتلى المشركين أثناء الغزوة، وقبل ملاحقتهم إثنان وسبعون قتيلاً.

غزوة تبوك

في السنة التاسعة للهجرة وصل خبر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الروم يجهزون جيشاً كبيراً لغزو المدينة، فحثّ أصحابه على الإنفاق لتجهيز جيش كبير لمواجهتهم، وكان ذلك في وقت شدة وصيف لاهبٍ، لذلك سُميت بغزوة العسرة، وقد أنفق أبو بكر ماله كله وأنفق عمر نصف ماله وجهز عثمان الجيش بألف دينار رضي الله عنهم جميعاً، وهكذا ساهم الجميع حتى تم تجهيز الجيش، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم، وترك علياً رضي الله عنه أميراً على المدينة.

أصناف المخلفين

تخلف عن الغزوة ثلاثة أصناف من الناس:

- المنافقون؛ وكانت أعذارهم واهية، وقد كانوا يلمزون المنفقين، وقد جهزوا مسجداً (الضرار) لإلهاء الناس والتحريض على المسلمين، وصدهم عن الجهاد، فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك قام بهدمه، لأن مصيرما بني بقصد الهدم الهدم.
- أصحاب الأعذار من المرضى وغيرهم؛ وقد بكوا لعجزهم عن المشاركة، فبين النبي صلى الله عليه وسلم لهم أنهم شركاء في الأجر مع المجاهدين.
- المخلفين من الصحابة بلا عذر؛ وعددهم عشرة، وقد ربط سبعة منهم أنفسهم في سواري المسجد (ومنهم أبو لبابة الأنصاري) حتى جاءت توبتهم من الله تعالى وأما الثلاثة الباقين (ومنهم كعب بن مالك) فقد منع الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة من الحديث معهم لمدة خمسين يوماً، حتى نزل الوحي بآيات التوبة عليهم، وقد كان مسير الغزوة ذهاباً وإياباً مع الإقامة في أرض تبوك خمسين يوماً، وكأن عقوبة من يعزل نفسه عن المشاركة في صناعة نصر الأمة، أن تعزله الأمة إذا انتصرت.

نتيجة الغزوة

لما وصل النبي صلى الله عليه وسام أرض تبوك لم يأتِ جيش الروم، وقد انتظره النبي صلى الله عليه وسلم عشرين يوماً لكنه لم يأتِ، فانتصر جيش الاسلام بالرعب على الروم مسيرة شهر، وهذا من فضل الله تعالى.

عام الوفود

بعد العام التاسع للهجرة بدأ قدوم الوفود للتعرف على الإسلام بعد أن قويت شوكته، فالقوة تغري الآخرين بالاهتداء، في حين أن الضعف يغري الآخرين بالاعتداء، وقد جاءت الوفود من كل مكان في الجزيرة العربية وغيرها، وكانت معاملة النبي صلى الله عليه وسلم للوفود على النحو الآتي:

- يلبس لهم أجمل الثياب.
- يستقبلهم في المسجد.
- يطلب من أصحابه تعليمهم الدين والقرآن.
- يدعو لهم بالخير.
- يجيب على سؤالاتهم.
- يعين عليهم أميراً منهم، ثم يرسلهم دعاة إلى قومهم.
- وأحياناً كان يرسل معهم من يعلمهم، كما أرسل معاذاً وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما لتعليم أهل اليمن.
- كثيرة هي الوفود التي جاءته صلى الله عليه وسلم، ومنها: وفد ثقيف وبني تميم وبني سعد بن بكر وَعَبَد القيس وبني حنيفة.

حجة الوداع ووفاة الحبيب صلى الله عليه وسلم

كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أذن لصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن يكون أميراً للناس في موسم حج العام التاسع للهجرة، بينما كان هو صلى الله عليه وسلم مشغولاً في استقبال الوفود ونشر الاسلام .. وفِي السنة العاشرة للهجرة أعلن للناس عزمه على الحج، فأتاه الناس ليحجوا بمعيته من كل فجٍّ عميق، حتى بلغ عدد من حجوا معه حجة الوداع قرابة ال١٠٠٠٠٠ نسمة، وقد سُميت بحجة الوداع لأنه ودّع المسلمين بها، ولَم يحج بعدها.

وقفات مع حجة الوداع

- قرن النبي صلى الله عليه وسلم بين العمرة والحج ولَم يتحلل بينهما، وإن كان يرغب بالتمتع لما فيه من التخفيف.
- راعى النبي صلى الله عليه وسلم حيضة عائشة رضي الله عنها فشجّعها على أن تستأنف الإحرام من جديد .. وراعى عدم مقدرة سودة بنت زمعة رضي الله عنها على المبيت بمزدلفة فسمح له بعدم المبيت .. وهذا تخفيف لعموم نساء وضعاف المسلمين.
- كانت خطبة النبي صلى الله عليه وسلم بعرفة خطبة جامعة أوصى فيها بالنساء، وحرم أعمال الجاهلية كلها، وأوصى بكتاب الله تعالى، وبالطاعة في المعروف.
- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على رفع الحرج والتيسير على أمته، لاسيما عند تزاحم الناس.
- أفطر النبي صلى الله عليه وسلم يوم عرفة وحث على إفطاره للحجيج.
- دعا النبي صلى الله عليه وسلم للمحلقين ثم للمقصرين.
- صرف النبي صلى الله عليه وسلم بصر الفضل بن العباس وقد رَآه ينظر إلى فتاة مع أمها في الموقف، تأديباً له.
- مما لابد من معرفته أن الحج ليس ركناً تعبدياً فحسب؛ بل هو ركن تعليم وتربية وتعارف، وشحذ للهمم وبناء للقيم، وتعايش مع أحوال الأمة، وبحث عن حلول لأزماتها.

وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

بعد عودة النبي صلى الله عليه وسلم من الحج جهز جيش أسامة بن زيد رضي الله عنه لفتح فلسطين والشام، ثم زار مقبرة شهداء أحد وكأنه مودع لهم

وَمِمَّا حصل في فترة مرض النبي صلى الله عليه وسلم:

- اشتد المرض برسول الله صلى الله عليه وسلم فطلب أن يعالج عند عائشة رضي الله عنها.
- كان النبي صلى الله عليه وسلم يوعك كما يوعك الرجلان منا، لأنه أعظم أجراً.
- حزنت فاطمة رضي الله عنها لمرض أبيها، فبشرها أنها ستكون أول اللاحقين به.
- أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين والأنصار، ونعى نفسه في إحدى خطبه حين قال للناس: بأن عبداً خيره ربه بين الدنيا وما عند الله، فاختار ما عند الله.
- كلّف النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر رضي الله عنه ليؤم في الناس.
- يمكن أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد مات بإثر السم يوم خَيْبَر، (وإن كانت مرتبة النبوة أرقى من مرتبة الشهادة في سبيل الله)، وهذا مما لا نملك الجزم فيه.
- كان الصحابة الكرام يحرصون على علاج النبي صلى الله عليه وسلم بالرقية، وصب الماء عليه لتذهب الحمى عنه.
- أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بأمور عظيمة منها: الصلاة، وبآل بيته الكرام، وبالنساء، وبطرد اليهود من جزيرة العرب.
- لم يكتب النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً يُبين فيه من هو خليفته، لكنه كثيراً ما كان يلمح لأبي بكر رضي الله عنه، هذا فيما يتعلق بشؤون العامة، أما في شأنه الخاص، فكان يلمح بأن خليفته في آل بيته عليٍّ رضي الله عنه.
- نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وهم يصلون خلف أبي بكر رضي الله عنه، وابتسم ابتسامة وداع ورضىً .. ثم مات من يومها.
- خيَّر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم ورأسه في حجر عائشة رضي الله عنها فاختار الرفيق الأعلى، ثم مات.

- توفي النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين من شهر صفر من العام الحادي عشر للهجرة، وتم تغسيله في ثيابه، والصلاة عليه أفواجاً أفواجاً، وقد تم دفنه في حجرة عائشة يوم الأربعاء بعد يومين من موته، وذلك بعد أن فرغ الصحابة من تعيين خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد انتهاء مراسم تغسيله وتكفينه والصلاة عليه.

مواقف الصحابة الكرام بعد موته صلى الله عليه وسلّم

- أنكر بعضهم وفاته، لاسيما عمر رضي الله عنه الذي استنكر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وفي المدينة منافق واحد!!، حتى جاء أبو بكر رضي الله عنه وذكّرهم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرٌ وقد انتهى أجله، وأن الثبات اليوم واجب الوقت.

- اختلف الصحابة الكرام في تعيين الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وسلم؛ فعليّ والعباس رضي الله عنهما يرونها في آل البيت، والمهاجرون والأنصار كلٌّ يرى لهم فيها نصيب، وبعضهم قال: منا أمير ومنكم أمير، حتى حسم عمر رضي الله الأمر لصالح أبي بكر رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة، فقبل الناس الرأي، وبايعوا أبا بكر رضي الله عنه، إلا بعض من تأخر في البيعة ثم بايعه لاحقاً.

-وقد قام أبو بكر رضي الله عنه خطيباً فيهم، وبيَّن لهم أنه خادمهم، ويحتاج نصيحتهم ومشورتهم، وطاعتهم في المعروف، وأنه حريص على إحقاق الحق فيهم.

الخاتمة

وبذلك ينتهي ذاك العهد الجميل؛ بما فيه من تحديات وفرص، أو حرج وفرَج، أو عسر ويسر، وبما نزل فيه من سور وآيات، وما كان فيه من حكمة وبيان وتعليم وتوجيه .. ينتهي تاركاً وراءه الفوائد المفتوحة في مجالات الحياة كلها؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية والفكرية والأمنية والعسكرية والإدارية .. فإما أن تلتقطها أمة الحبيب صلى الله عليه وسلم لتحقيق التجديد المطلوب والاستعداد للاقلاع الحضاري من جديد، أو يلتقطها أعداء الأمة، ويستخدموها بما يخدم خططهم، ويعطل روح النهضة فينا إلى يوم الدين ..

وَمِمَّا لابد من لفت الانتباه إليه أن هنالك مدرستان في تدوين روايات السيرة؛ مدرسة المحدثين الذين أتوا بها مسندة ثم تم الحكم على تلك الروايات وأسانيدها من حيث الصحة والضعف.

وروايات المؤرخين الذين أتوا برواياتهم لأحداث السيرة على ضوء اشتهارها تاريخياً، ونحن إذ نثني على جهود المدرستين؛ فإننا نقدم مدرسة المحدثين، ولا نرفض ما اشتهر من روايات المؤرخين مما لم يتناول جوانب العقيدة والتشريع، ولَم تخالف الصحيح الثابت من روايات المحدثين ..

نسأل الله أن يجزي نبينا صلى الله عليه وسلم وصحابته وآل بيته الكرام عنا خير الجزاء .. وأن يرزقه الوسيلة .. وأن يبعثه مقاماً محموداً الذي وعده .. وأن يجعلنا خير خلف له في المنشط والمكره وأن يكرمنا بشفاعته والشرب من حوضه الكريم يوم الدين.



المراجـــع

يوصي المؤلف بالرجوع إلى كتابه «السيرة المستنيرة » الذي قامت جمعية المحافظة على القرآن الكريم بطباعته .... وهناك تجدون المراجع باستفاضة .

صدر للمؤلف

أكرم الله تعالى المؤلف بنشر عدد من المؤلفات منها:

- رسالة المنبر (مجلد ٤٦٥ ص)
- الوفاء للأحباب الذين سكنوا التراب (مجلد ١٩٠ ص)
- السيرة المستنيرة كاملا بجزئيه المكي والمدني (كتاب ٦٨٠ص)
- دفتر رباط القلوب (دفتر محاضرات ٣٠٠ ص)
- رباط القيم (كتاب ٢٨٠ ص)
- أيتام عبر التاريخ (كتاب ١٤٠ ص)
- على بصيرة (كتاب ١٣٦ ص)
- هذا بصائر (كتاب ١٦٠ ص)
- على نفسه بصيرة (٢٠٠ ص)
- الدعوة والاتصال الجماهيري (كتاب ٧٦ ص)
- دليل أولويات الخطاب الوعظي للجاليات المسلمة في أوروبا (كتيب ٧٢ ص)
- الحيــاة مع القرآن (كتيب ٦٤ ص)
- قصة الدعوة الفردية (كتيب ٣٥ ص)
- معالم استنهاض الروح الجهادية من وحي الصور المكية (كتيب ٧٥ ص)
- رسائل في فقه الرباط والجهاد (كتيب ١٠٠ص)
- دليل المسلم المرابط (كتاب ٣٠٠ ص)
- منهاج ثقافة المرابط (مجلد ٥٠٠ ص)
- معالم التربية الحكيمة في سورة لقمان (كتيب ٥٠ ص)
- جامعة الثلاثين (كتاب ٧٠ ص)
- نفحات للعاملين عليها (كتيب ٥٠ ص)
- رياض المتصدقين (كتيب ٥٠ ص)
- الثمر الداني في بستان العمل القرآني (كتاب ٢٥٠ ص)
- من وحي القرآن و السنة (كتيب ١٢٠ ص)
- معالم اللطف من وحي سورة الكهف (كتيب ٣٠ ص)
- الصدقة الجارية والأسئلة السبعة (كتيب ٤٠ ص)
- لماذا (١٠٠٠ سؤال في عالم الواقع والخيال) (كتيب ٥٠ ص)
- رباط المصاحف (كتيب ٢٠ ص)
- سُوَر من القرآن قيم ودلالات (٣ أجزاء بالاشتراك)